أحمد مرزوق

موعد مع فيلسوف

دار دوّن

ضياء
t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمَ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

تأكد من أنك تقرأ هذه الرواية من قناة ضــاد الرسمية على تطبيق تيليجرام:

تمَ تجهيز هذا الكتاب الإلكتروني
بـواسـطـة:

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

إهداء

إلى رحلة الحياة..

لم نغفر للأيام التي رحلت أنها رحلت، حتى تلك الأيام الحزينة!

فإذا كانت الرحلة ستنتهي حتمًا، فلتنتهِ هونًا.

وإلى أبي وأمي (رحمهما الله)..

رحلتما وأخذتما معكما ناصية الكلمات، لا أجد مفردات تفي عمق ما تركتما من أثر طيب.

وكأن كل مشاعر الامتنان قد رحلت معكما!

أرجو أن يدعو لكما كل من يقرأ الكتاب.

قبل السفر

هذا الكتاب هو محاولة للارتحال داخل الذات، ذاتك وذاتي.. هو محاولة للبحث ليس إلا، البحث عن نفوسنا التائهة والبحث في نفوسنا الضائعة.. محاولة للبحث لعلنا نطمئن ونؤنس النفس ونعرف الطريق.

لا تنتظر الكثير، بل ابحث معي.

لا تنتظر إجابات جاهزة بل ابحث معي.

لا تنتظر إرشادات واضحة، بل ابحث معي.

هذا الكتاب هو رحلة في قطار، يشبه قطار حياتنا، قد تجد فيه محطات تناسبك وترضيك وتحب البقاء فيها، وقد تجد محطات لا تحب البقاء فيها، محطات مربكة وثقيلة.

غير أن ذلك الكتاب يتخذ مسارًا مثل القطار، يُفضل أن تمر على كل المحطات بترتيبها.

أرجو أن تجد طريقك.

فلسفة البداية

محطة القطار ازدحمت بالركاب، وكرجل يحب محطات القطارات، يحب كافيتريا القطار والطاولة التي تواجه النوافذ الزجاجية أمام رصيف القطار، كنت أذهب عادة قبل موعد القطار بساعة لأشرب فنجان القهوة الفرنساوي وأدخن البايب بالقرب من النافذة الزجاجية.. البشر قصص وأحوال، والمسافرون أسرار، لكل مسافر حكاية غنية بالتفاصيل..

كنت أحب مشاهدة المسافرين الغرباء، وحدها محطات القطارات تشعرك أنك مستعد للتحدث مع أي شخص يمر بجوارك؛ لأنك تدرك بشكل قاطع أن كل ما يجمعكما مجرد صدفة سفر، سرعان ما سيتبخر كل منكما في طريقه، مهما طالت الرحلة.

أحببت مشاهدة العجائز في برد الشتاء عندما يمر أحدهم بصحبة زوجته وهو يسحبها من زراعها ويمسك بحقيبة سفر صغيرة في نفس اليد التي تعلقت بها زوجته، وباليد الأخرى حقيبة سفر عملاقة تكفي ليخفيا فيها جثة رجل بالغ.. وبينما هي تتحدث بلا توقف وهو يتمتم بهمهمات متأففة دون أن يخرج من فمه كلمة واحدة مسموعة وبخار الماء يصنع دخانًا في الفضاء.. هذا الرجل المتأفف لو خيرته بين زوجته والحقائب ربما سيختار الحقائب والأكيد أنه سيختار أن يكون جالسًا الآن على "أريكة" بيتهم ولا يزعجه أحد.. لكن بعد عدة خطوات بسيطة، لو أخذنا منه زوجته والحقيبة العملاقة التي ربما بها أشياء تكفي ليسافرا معًا عدة مرات وستظل بها

أشياء لم تمس، لو أخذنا منه كل شيء في الأغلب سيتوقف عن استمرار السعي ويتمنى لو أن زوجته كانت معه، هي ورغيها المستمر وحقائبها العملاقة.

مشهد العجائز متكرر، وكذلك مشهد السيدات الوحيدات في كافيتريا القطار، والغرباء من أهل القرى البعيدة.

طلبت فنجان قهوة فرنساوي وزجاجة مياه، كانت الكافيتريا نصف مزدحمة ونصف هادئة، قطار الثامنة صباحًا لا يتسبب في زحام المحطة، أهل الأعمال والمواعيد الحكومية يسافرون في قطار الخامسة والسادسة صباحًا، وأهل الزيارات العائلية والسياحة يسافرون في قطارات الظهيرة والمساء.. أما قطارات الثامنة صباحًا فهي لهؤلاء الغرباء المجانين الذين يسافرون لمزاجهم ويتأملون العجائز من خلف النوافذ الزجاجية والسيدات الوحيدات الجميلات في مقهى قطار حيث تكون احتمالات التعلق بإحداهن قيمتها بالسالب.

كانت عدة طاولات مستطيلة في البهو الخارجي للمقهى وست طاولات مستديرة في الداخل بالقرب من البار المرتفع.. نظرت إلى شاشة معلقة على جدار مرتفع تعرض مشهدًا لأسد يحاول افتراس ذكر جاموس بري يجري بين الأحراش في غابات متسعة، كان قطيع الجاموس يزيد على الألف، رغم ذلك تحكمت به غريزة البقاء ومشاعر الخوف فهربوا من زمرة الأسود التي لا تزيد على الخمسة.

تتحرك الغريزة أسرع من صاحبها، في رحلة الحياة نسقط أحيانًا كثيرة فريسة لفخ لم نعمل له حسابًا، الغرائز أحد أشهر

تلك الفخاخ، في الأساس كانت وظيفة الغريزة هي حفظ الحياة واستمرارها.. لكن خللًا ما حدث في تلك الغرائز فأصبحت مختلطة بالمشاعر فتم أداء الوظيفة بطريقة مغايرة.. الأمر كله غريب جدًّا، غريزة البقاء وظيفتها أن تجعل الإنسان يتخذ رد فعل للحفاظ على حياته في المواقف الخطرة.. هذا ما حدث مع الإنسان الأول عندما سكن الكهف.

لقد واجه الإنسان الأول الوحوش والحيوانات والمطر والسيول وحرائق الغابات، وبنفس الغرائز التي يمتلكها إنسان هذا العصر، لكن الإنسان الأول دفعته الغريزة للمواجهة، ودفعه الخوف للبحث.. كانت بدائل الإنسان الأول تتعلق دومًا بابتكار الحلول والتغلب على الخوف بالطرق التي توصل إليها في ذلك الوقت، اختار الإنسان الأول الكهف كملجأ وملاذ من العراء والأحراش.. لقد كان الكهف بالنسبة له انتصارًا لفكرة الأمان وعندما استمر في المواجهة واستمر في الخوف دفعته غريزة الاستمرار لإنجاب الكثير من الأبناء.. لقد نظر إلى ذلك الكهف ووجد به مساحات فارغة كثيرة واستوحش من فكرة الفراغ، كان الكثير من الفراغ يغلف الحياة في ذلك الزمان والكثير من الوحشة وكانت غريزة البقاء تدفع رجل الكهف لمواجهة الوحوش الضارية اتقاء لخطرها، وربما بعد ذلك وجد الإنسان فيها غذاء.. غريزة البقاء أيضًا دفعته ليسكن الكهف، ثم إن غريزة الاستمرار دفعته لكثرة الإنجاب، وكثرة الإنجاب كانت تستوجب كثرة النساء لأنهن كن وعاء الأجنة ومصدر الحياة، ومن هنا نشأت فكرة الافتراس، تحول رجل الكهف لصياد يسعى لافتراس أي "امرأة" يجدها ويحولها

لامرأة كهف حتى تلد له المزيد من الأبناء.. والمزيد من الأبناء يعني استمراره واستمرار نسله ويعني قتل الفراغ في الكهف، وتعمير الكهوف المجاورة بالأبناء الذين يساعدونه في مواجهة الوحوش والضواري والتعامل مع الكوارث والنجاة من حرائق الغابات والتصدي لرجال الكهوف الأخرى.

ولما تشكلت فكرة الافتراس/ الصيد وتحولت المرأة لفريسة محتملة نتيجة لغرائز البقاء/ الاستمرار ونتيجة لمشاعر الخوف التي واجهها رجل الكهف، فقد تشكلت فكرة جديدة مصاحبة لكل ما سبق وهي فكرة الصراع!

لأن غرائز ومشاعر رجل الكهف كانت نفسها لدى رجل الكهف المجاور وبالتالي سعى الآخر في الكهف المجاور للصيد/ الافتراس لكي يقتل الفراغ في كهفه ويزيد من عائلته ويبدأ قبيلته ويعمر عدة كهوف بذريته.. ولما كانت المرأة هي السبيل الوحيد لذلك فإن الرجلين تقاتلا من أجل الحصول على المرأة! (42)

هذا قد يفسر ما انتقل في چينات الرجال منذ عصر الإنسان الأول وحتى اليوم من الصراع حول المرأة.. بل محاولات اصطياد أكبر عدد من النساء!

أطلقت إذاعة محطة القطار نداءً أن موعد القطار قد اقترب، وتحرك الناس في المقهى حركات سريعة متلاحقة، دخلت سيدة أربعينية متلهفة ترتدي معطفًا طويلًا ونظارة سوداء، وبدا عليها الارتباك والتوتر، ثم مسحت المكان كله بعينيها، توقفت قليلًا عينها نحوي من وراء النظارة العملاقة، اقتربت

مني وقالت: "تبقى ربع ساعة على قدوم القطار" ولم تمهلني لأسألها من هي، ذهبت نحو الفتاة العشرينية التي تجلس أمامي، وهمست لها بكلمات ثم خرجت تجر خلفها حقيبة صغيرة.. عجيب أمر ركاب القطارات تشعر وكأنك تعرفهم ويعرفونك رغم كل الغربة بينكم.. مثل رجل الكهف الأول وسيدة الكهف الأولى، لقد جمعتهم الغربة، أليس من الغريب أن ما يجمعنا هو الغربة؟! نظن أن الذي جمعنا هو القرب، رغم أن غربتنا عن بعضنا هي ما دفعتنا لنقترب! لا يحب الإنسان أن يعيش غريبًا، دون أن يدري يجد نفسه يصادق هؤلاء ويحب هؤلاء ويتسامر مع هؤلاء.. إن مفاتيح جنة الحياة تكمن ولا شك في الصحبة الجميلة.. تحركنا غرائزنا ومشاعرنا وأفكارنا، وتحركنا حالة عجيبة من الاغتراب الداخلي، تدفعنا للتواصل حتى نبدد غربة الأيام.

رحت أنظر نحو الشاشة المعلقة وكانت الأسود لا زالت تفترس ضحاياها، يحركها غريزة البقاء ويحرك ضحاياها غريزة الخوف.

ولكن إذا كانت غرائز رجل الكهف ومشاعره جعلته يقاتل الوحوش ويصارع الجميع بل ونفسه من أجل الفوز بامرأة جديدة، فماذا فعلت امرأة الكهف مع غرائزها؟!

لقد كانت المرأة تصارع الخوف هي الأخرى في ذلك الزمان البعيد، بل وربما إلى الآن.. الخوف من العراء من أصوات الوحوش والذئاب ومن فكرة الافتراس، إن كل ما كان يحيط بالمرأة في ذاك الزمان كان يدعو للخوف، حتى من الرجال

الذين يسعون لاصطيادها، وربما أن فكرة الانتماء لكهف كانت فكرة آمنة جدًّا.. لقد كانت فكرة مطمئنة وفي غاية الرومانسية أن يصبح لها كهف تحتمي فيه، ثم إن ذلك الرجل الضخم الذي يسد فوهة الكهف ويقف هناك حائلًا دون دخول النور والهواء، في الحقيقة كان ألطف من كل الوحوش في العراء!

وبتجربة الأيام معه فقد منحها ذلك الرجل أحب ما رأت عينها، لقد منحها نطفته التي شكلت وليدًا ملأ فراغ الكهف بالبكاء والصخب واللعب.. بمرور الوقت ستجد امرأة الكهف في التكيُّف مع الأمر الواقع بعض السلوى وعزاءًا مقبولًا به لتخفيف وحشية "الخارج" ووحشة الفراغ خارج الكهف وداخله...

غير أن طبيعة الكهف الحجرية الصلبة الرمادية لم تناسب مزاج سيدة الكهف، لم يناسبها الثنائية المتاحة في ذلك الزمان السكوت المقبض والأصوات الموترة، كان على المرأة أن تبتكر شيئًا جميلًا؛ لأن العالم كان محددًا بشكل يدعو للملل، كان التعامل مع المتاح هو كل ما يمكن معرفته، لذلك ربما أن أول من ابتكر الغناء كانت امرأة.

لقد اضطرت المرأة لهدهدة أطفالها، في حين كان زوجها يبحث في الخارج عن الطعام، أو يجلس أمام الكهف ينظر إلى الأفق منتظرًا أن يمر أحد الغزلان ليصطاده أو مراقبًا قدوم الذئاب والحيوانات المفترسة ليبعدهم بجذوة مشتعلة أعدّها مسبقًا.

ربما أن جلوس ذلك الرجل القديم أمام الكهف لساعات

طويلة كل يوم وطوال حياته ينظر نحو الأفق منتظرًا شيئًا لا يعرفه، قد أصاب رجل الكهف الأول بحالة من الشرود المطلق، وهذا ما قد يفسر لماذا تجد رجل العصر الحالي يشرد في اللاشيء، إن أحبَّ شيءٍ لرجل هذا الزمان هي "الكنبة".

جرب أن تضع رجلًا وأريكة وجهاز تلفزيون عملاق واتركهم لأيام وسوف تعود وتجده يجلس مرتاح البال مثل جده رجل الكهف القديم الذي كان يجلس أمام الكهف يتأمل الأفق في انتظار اللاشيء، الفارق الوحيد أن جده كان مضطرًّا للجلوس كل ذلك الوقت على أرض حجرية صلبة قبل اختراع الأريكة.

النقطة المثيرة للانتباه هنا هو ما كانت تفعله المرأة في نفس اللحظة التي جلس الرجل فيها شاردًا، كانت هي تضيف حالة من اللعب مع أطفالها، وتحاول قتل الصمت بالهدهدة، وهكذا بدأ الغناء، كما أن المرأة أثناء محاولات إطعام أبنائها أرادت أن تُخرِج النُّخاع من عظام الحيوانات؛ فنفخت في تلك العظام وفوجئت بصوت الصفير يخرج من العظام، وربما كان ذلك هو أول "بوق" في التاريخ وأول آلة موسيقية.

لو أن المرأة هي من اكتشفت الغناء والعزف فهي أضافت للحياة بهجة وجمالًا كان كفيلًا ليقضي على وحشة الكهف والحجر، لكن شيئًا حزينًا ظل كامنًا في نفس امرأة الكهف، تمثل ذلك الشيء في رغبتها للخروج، كانت تتوق بتغيير اللون الرمادي للحجارة، كانت تتوق للشجر والغابات والأزهار والشلالات وألوان قوس قزح التي تزين السماء.. وما كان ينازع ذلك التوق هو الخوف، الخوف من "المجهول" في

الخارج والخوف من فكرة الافتراس، أو أن يصطادها رجل كهف آخر بعد ألفة ذلك الضخم الغريب القريب الذي اعتادت أنفاسه.

مشاعر التوق إذًا في مواجهة مشاعر الخوف، تُرى أيهما ينتصر؟!

غير أن مشاعر الخوف أقرب لغريزة البقاء، وغريزة الخوف من الموت، وهنا بدأت غريزة جديدة تنشأ وهي غريزة التكيُّف، لذلك قد ندعي أن أول من بدأ ابتكار الألوان من النباتات ودماء الحيوانات والتراب الأحمر وبدأت في تلوين الكهوف هي المرأة، وأول من أراد الرسم والنحت على جدران الكهوف كانت امرأة الكهف(41).

ما يمكن تخيله عن الغرائز هنا أنها بدأت مع بداية الخلق الأول، وأنها تحدث دون تفكير من الإنسان، إن الغريزة هي استجابة تحدث دون تفكير أو مشاعر أو رغبة، رغم ذلك فإن الغريزة تحدث لسبب.

الأمر مربك جدًّا؛ فالغريزة أمر يحدث بسبب محفز، بمجرد حدوث المحفز تبدأ الغريزة، وإذا بدأت فإنها تحدث دون تد خل من الشخص، الأمر أشبه باستجابة الجهاز الباراسمبثاوي في جسم الإنسان، فعندما تضع يدك على سطح ساخن سوف تسحب يدك بسرعة، رغم أنك لم ترغب في سحب يدك!

كانت رغبتك في وضع يدك على ذلك السطح، لكن جسدك استجاب بشكل معاكس لرغبتك؛ لأن ثمة "محفز" مضاد

للرغبة.

نفس الشيء يحدث في الغرائز، هناك محفز يحدث فتثار غريزة بشكل تلقائي.. ضع رجلًا شاردًا أمامك، وفجأة يظهر أمامه نمر مفترس، سوف تجد الرجل في إحدى حالتين لا ثالث لهما؛ إما أن تجده في آخر الطريق بعكس كل قوانين الفيزياء، ولن تعرف أبدًا كيف استطاع أن يقطع كل تلك المسافة في جزء من الثانية، وكأنه انتقل آنيًا.

أو ستجده استجاب في جزء من الثانية، وبدأ مقاومة النمر بأي طريقة عفوية.

لو وجدت الرجل جامدًا بينما يلتهمه النمر، فاعلم أن الغريزة تعطلت بسبب شعور الخوف، وأثر ذلك الخوف أدى إلى ثبات وجمود الشخص مكانه بلا حراك.. إن تعطل الغريزة وغيابها في ذلك المثال يؤدي للنهاية حتمًا.. إذًا فالمشاعر مثل الخوف قد تعيد تعديل الغرائز وكبحها وتقويدها في بعض الأحيان!

بالعودة لرجل الكهف، فيمكننا تخيُّل ذلك الرجل الضخم، وقد نظر سهوًا للداخل بينما كانت زوجته تستحم، وقد رأى ضوء النار المرتعشة ينعكس على جسدها الغض فتحرك مشدوهًا يسحب ثقل جسده بقوة الانجذاب الغريزي نحوها، حتى إنه عندما اقترب منها واشتم رائحة بشرتها أصبحت غريزته هي كل عقله.. فلا شيء يمكنه التأثير في عقل أحد الرجال مثل رائحة جسد امرأة يحبها.. غير أنه في تلك اللحظة تحديدًا سمع صوت عواء ذئب يقترب، والذئاب لا تأتي فرادى، إنما تتحرك في جماعات.. فإن استجابته لغريزة البقاء ومشاعر

الخوف سوف تطرد غريزته الجنسية في أجزاء معدودة من الثانية ويتحول الجسد المثقل البطيء إلى جسد يجري بخفة لأول الكهف ثم ستجد الشعلة التي أضاءت جسد زوجته تحولت إلى سلاح للحماية.

هكذا إذًا يمكن تهذيب بعض الغرائز بالمشاعر والأفكار، الأمر يحتاج إلى تدريب طويل ورغبة حقيقية، غير أن المحفز الذي يؤدي إلى إثارة الغرائز يظل له نفس التأثير مهما حاولنا السيطرة على الغرائز، كل ما قد يتغير هو طبيعة الاستجابة، وذلك أمر نسبي جدًّا.. فإذا أردت تعطيل غريزة فلتضعف حدة المحفز إن لم تستطع منعه، أو تضعف الانتباه إليه والتركيز معه!

أخذني التفكير في الغرائز عن مشهد المارة من أمام كافيه القطار، كانت الشاشة لا تزال تعرض الفيلم التسجيلي، وقد تجمع عدة ذكور من قطيع الجاموس وحاولوا مواجهة زمرة الأسود.

جاء عامل المقهى بالقهوة الفرنسية مضافًا إليها "سكر زيادة" وقد أربكني كثرة السكر، لا أحب الأمور المحلاة أكثر من اللازم؛ إذ يتطلب الأمر الاعتياد على شيء لا يمكن ضمانه طيلة العمر.. أخرجت البايب من الحافظة الجلدية الخاصة به، عبأته بالتوباكو(40) وأخرجت علبة ثقاب ذات أعواد طويلة وأشعلت البايب وعبأني بالمزاج الرائق.. يقولون: البايب هو أسرع طرق التدخين للموت، وأسرع طريق لسرطان اللثة أحد أندر السرطانات اللعينة، رغم ذلك يسيطر المزاج على الخوف

من سرطان اللثة!

تتبعت من أسفل نظارتي نظرات فتاة في منتصف العشرينات تركز مع تفاصيل تدخيني للبايب منذ اللحظة التي بدأت فيها تعبئة البايب بالتوباكو، كانت نظراتها فضولية وحزينة ورقيقة.. عجيب أمر الإنسان، كيف يجمع في عينيه كل تلك المعاني؟!

ومع الرشفة الأخيرة لفنجان القهوة الفرنساوي كان نداء إذاعة المحطة بوصول القطار إلى رصيف رقم ٤ أحب الأرصفة لقلبي، حيث رحلتي الأسبوعية إلى مدينتي الحبيبة، قطار ٩٢٥ من نفس الرصيف في الثامنة صباحًا كل أسبوع.. هكذا تنتظم الحياة إذًا.

الطريق والسفر والشرود مع النافذة وكأني أجلس متأملًا السماء أمام الكهف.. كهفي وحدي.

***

فلسفة الطريق

توجهت لعربة القطار للجلوس في كرسي منفرد بجوار النافذة، ووجدت رجلًا ضخمًا يجلس في المقعد الخاص بي، غلفني الترقب والحيطة وقبل أي شيء وقفت أنتظر مرور أحد مشرفي القطار.

تحاشيت الكلام مع الرجل لأني أحفظ عن ظهر قلب العبارات المكررة التي سيقولها عن أن جميع المقاعد تصل في نفس التوقيت، وأن الرحلة كلها تستغرق ساعتين ونصفًا، ولا داعي لتحبيك الأمر.

لقد تكررت تلك النوعية من العبارات مئات المرات من أشخاص لا يعرفون بعضهم في رحلات تفصل بينها سنون، كيف يمكن للعقل البشري أن يصل لنفس المبررات لأشخاص مختلفين في أزمنة متباعدة؟!

يبدو أن الأمر إذا تعلق بالمجادلة والرغبة في عدم الاعتذار ومحاولات المكابرة فإن منهج "التبرير" يتخذ مسارًا محددًا عند أغلب البشر، طريقة معروفة وسهلة بالنسبة للعقل يمكنه من خلالها إيجاد "حجج" معلبة ومعبأة مسبقًا!

يمكنني من خلال طريقة أي شخص في التبرير معرفة إذا كان خائفًا من أمر ما، أو إن كان محرجًا أو مظلومًا وبسعى للتوضيح، وكذلك يمكنني اكتشاف إذا كان التبرير بسبب المكابرة.. إن رؤية شخص يبرر موقفه قد تعني الكثير من الأمور آخرها هو التبرير نفسه.

عندما حضر مشرف القطار أسرعت بتذكرتي وأشرت تجاه المقعد حيث الرجل الضخم، وأمسك المشرف تذكرتي ثم أشار لي بالجلوس في مقعد بالصف الثاني، وكانت التذكرة تشير فعلًا لكرسي في صف يضم مقعدين ولم أكن بجوار النافذة!

أخبرت المشرف أن ثمة خطأ حدث في حجز التذاكر للمرة الأولى منذ سنوات.. ضبطت نفسي متلبسًا أحاول تبرير الموقف والبحث عن حلول، فتوقفت عن المماطلة فورًا وكانت نظرات الجميع تحاصرني فسقطت في الكرسي وهربت للتشاغل بحقيبتي الصغيرة.

كنت أجلس في مقعد بجوار الفتاة العشرينية التي رأيتها منذ قليل في المقهى، وفي الصف الآخر بجوارنا تجلس السيدة الأربعينية في مقعد منفرد بجوار النافذة.

وكنت أشعر أن تلك السيدة تلاحقني، كانت مريبة، وكل الصدف كانت مريبة في ذلك الموقف، مريبة وموترة، وعندما أشعر بالتوتر أحاول الانشغال بأي شيء.

أخرجت من حقيبتي جراب جلدي صغير يحوي الغليون والأدوات الخاصة به، ووجدت السيدة الأربعينية ذات النظارة السوداء تخبرني أنه غير مسموح بالتدخين هنا، وكنت أعرف ذلك، لكن إحراج الموقف دفعني للتشاغل بإعادة ترتيب أشيائي، واستغربت اقتحامها الشديد لمساحتي الشخصية.. أخرجت كتابًا، وسماعات عملاقة تعزلني عن العالم، بدأت الموسيقى ونظرت نحو النافذة.

كانت البيوت والأراضي الخضراء الممتدة تمر من أمامي، تقترب عواميد الإنارة ثم تبتعد سريعًا وكأنها تسافر بعيدًا.. الفلاحون في الأرض يمرقون أسرع من عواميد الإنارة والمدن تختفي بعيدًا خلف الضواحي الزراعية، وكان كل شيء قريبًا يمرق سريعًا بينما البيوت البعيدة تمر أبطأ حتى تختفي..

لسبب ما كلما اقتربت الأشياء يقل زمن بقائها.. لحظة امتلاك الشيء تمر بشكل خاطف، نبرع نحن البشر في انتظار الأشياء، لدرجة أن هناك هوسًا يصيب الناس يمكن تسميته "هوس الانتظار".

لقد عبّر عنه الكاتب "صمويل بيكيت" في مسرحيته الشهيرة "في انتظار چودو" والتي تصنف أهم مسرحية في القرن العشرين، وفيها ينتظر شخصان عودة صديقهما الغائب، والذي يدعى "چودو"، وبطول انتظارهما، بينما هما جالسان قرب شجرة لا يقومان بأي شيء غير فعل الانتظار، وهذا الشخص "چودو" لا يجيء، لا أحد يعرف متى رحل چودو ولا متى سيعود ولا أحد يعرف مصيره، وهل حقًّا سيعود أم ربما تحول انتظاره إلى وهم دائم مقيم؟

ومع انتظار عودته يتحول الانتظار نفسه إلى غاية بعد أن كان مجرد حالة أو موقف! لدرجة أن الشخصين اللذين ينتظران چودو يفكران في الانتحار كنوع من أنواع الاستسلام؛ لعدم مجيء چودو، لقد تحول انتظارهما إلى شرط للحياة نفسها.. ولكن چودو لم يحضر، والعجيب أن حالة الانتظار تمتد إلى ما لا نهاية!!

يوميًّا أقابل أشخاصًا ينتظرون حدوث أمر ما، ربما فتاة تنتظر أن يفاتحها صديقها المقرب في رغبته بالارتباط بها، تجلس سنوات في انتظار تلك المحادثة التي سيخبرها فيها عن رغبته في الارتباط بها أو عن إعجابه بها، تداعب الأحلام خيالها وتسقط في بئر من أحلام اليقظة وأمنيات ما قبل النوم وبعدما يمر العمر.. ربما سنوات طويلة، ويظل ذلك الصديق/ الزميل على موقفه، تجدها تلعنه في كل موقف وكل مكان، وإذا سألتها عن السبب تخبرك عن انتظارها لسنوات لكنه متردد وأحمق وغبي، والسؤال الأهم هنا من الذي ضيع عمرها؟ هو بصمته؟ أم هي بانتظارها؟

ولو دققت في الأمر ستخبرك أن كل أفعاله كانت تفصح عن مشاعره واهتمامه، لكن، هل حاولت هي يومًا واحدًا أن تسأل نفسها كيف يتصرف الرجال؟

في الحقيقة أن الرجال يجيدون التصرف في الأمور العملية، لكنهم في الأمور العاطفية يشبهون الأطفال، مذبذبين، مترددين، وأحيانًا لا يحددون بدقة ماذا يريدون.. الرجال تفعل الأشياء لأسباب، والنساء يفعلن الأشياء لمشاعر.. والمشاعر عند المرأة سبب واضح وأصيل.. الرجال تقترب وتبتعد لأسباب منطقية والنساء تقترب وتبتعد لأسباب شعورية أو نفسية.. لذلك ربما اقترب هذا الشاب من الفتاة لألف سبب، منها ما يمكن تفسيره على محمل الأذى والتسلية والأنانية، ومنها ما يمكن تفسيره على محمل أنه من البداية لم يفصح عن شيء، لم يتحدث عن مشاعر؛ لأنه لم يشعر بشيء مهما

اقترب!

الناس مهووسون بالانتظار، انتظار الكنز، انتظار أن تتعثر قدمه بحقيبة ممتلئة بالأموال، انتظار أن يظهر له أحد الأقارب من بعيد ويرث منه أموالًا طائلة، انتظار أن يحفر تحت بيته فيجد سبيكة ذهبية مخبأة.. انتظار الفرج، انتظار الترقية في العمل، انتظار المكسب في لعبة الحظ، اليانصيب، مسابقات التلفزيون الشهيرة ومسابقات الإنترنت.. يمكنك بسهولة أن تجد من بين أصحابك المقربين واحدًا على الأقل قد اتصل برقم هاتف أو أرسل رسالة نصية للمشاركة في مسابقة لا تعتمد على بذل مجهود وعمل، ولكنها مسابقة حظ تكسب بعدها ثروة أو تحقق بها حلمًا.. وللمفارقة فإن أحد أشهر تلك المسابقات في الوقت الحالي تسمى مسابقة "الحُلم".

فتش عن كل المسابقات وستجدها تحدثك عن فكرة تحقيق "الأحلام"، وهنا يجب أن نتوقف قليلًا لنسأل أنفسنا لماذا نحاول أن نحقق الحلم ولا نحاول أن "نحقق" الواقع؟! أليس الواقع أجدر بالتحقق؟!

محاولات تحقيق الواقع أصدق وأنجز وأكثر قدرة على الإثبات.. أما الأحلام في الأغلب شيء خيالي، بعيد عن الواقع ولا يمكن تصديقه.. الواقع مرتبط بالطموح، بينما الخيال مرتبط بالأحلام.. إن فكرة الحلم نفسها فكرة تحلق في تخيلات اللامعقول في تخيلات اللا منطقي وفي "انتظار" شيء لا يمكن وضع خطة للوصول إليه، أما فكرة الطموح فيمكن تفسيرها إلى خطوات عملية ومفهومة وقابلة للتحقيق.

حتى في تاريخ الحكايات عند البشر سنجد حضور فكرة انتظار الكنز، انتظار الحلم، في تراث الأساطير العربية نجد أن علاء الدين انتظر جني المصباح لتحقيق أمنياته الحالمة، وأصبحت رحلته كلها في سبيل تحقيق أمنياته تعتمد على الجني، غير أن أمنيته الوحيدة الأصيلة لم تتحقق إلا عندما اعترف بالحقيقة لحبيبته ياسمين، عندما عاد للواقع، وتوقف عن الاعتماد على الجني..

وهكذا نجد أفكارًا مشابهة في التراث الهندي واليوناني والصيني.. في اليونان مثلًا نجد أن أخيليس البطل الأسطوري انتظر طوال حياته أن يخلد اسمه في التاريخ؛ لقد شارك في حروب لا تخصه، وعاش يعرّض نفسه للموت وللمخاطر ألف مرة فقط؛ لانتظار ذكر اسمه في التاريخ، غير أنه في لحظة انتمائه للحياة.. اللحظة الوحيدة التي وجد نفسه فيها يحارب من أجل شيء حقيقي ينتمي إليه وهي حبيبته بريسيس.. اللحظة التي تمنى فيها الحياة بحق والتوقف عن القتال للمرة الأولى لكي تهدأ نفسه وتستقر.. في تلك اللحظة أصابه سهم أسفل قدمه وسقط بعدها لتتوالى الأسهم والطعنات ويظل ذِكر أخيليس في التاريخ بنقطة ضعفه الوحيدة وهي "كعب أخيل".. لقد انتظر لسنوات طويلة يحارب من أجل أن يذكر اسمه في التاريخ، وكان الخيال يداعب أفكاره بالفخر والعزة.. لكن الواقع كان أكثر تصديقًا من الخيال، ولم يُذكر في التاريخ ببطولاته بقدر ما ذكر بموته الدرامي.

الناس مهوسون بالانتظار حتى إن فكرة الانتظار قائمة في

عقائدهم ودياناتهم.. في حكايات الشعوب تأصلت فكرة انتظار الشخص "المخلّص" الذي يظهر في صورة حاكم أو بطل أسطوري، وربما قائد عسكري أو حكيم ملهم، وربما عودة أحد الأنبياء!

إذا قرأت في تاريخ وأساطير البشر ستجد فكرة الانتظار قائمة بشكل أصيل في وجدانهم.. انتظار المخلّص.

المسلمون ينتظرون "المهدي" وانتظار المهدي عند المسلمين شيء أساسي قائم في وجدان المتدينين، ولكل منهج طريقة في انتظار المهدي، فالسُّنة يؤمنون بقدوم المهدي الرجل الصالح الذي سيملأ الدنيا عدلًا، يؤمنون أنه سيأتي يومًا، لكنهم غير مأمورين بانتظاره، إن فكرة المهدي عند أهل السنة فكرة باعثة على الأمل، أن يأتي شخص يملأ الدنيا عدلًا وخيرًا، لكن لسبب ما ولطبيعة الشعوب في حب الانتظار تحوّل المهدي في ثقافة المسلمين عامة من كونه "المهدي" إلى كونه "المهدي المنتظر".

وربما أن المنهج الشيعي هو ما أضفى فكرة الانتظار؛ لأن الشيعة يؤمنون بانتظار المهدي أكثر من إيمانهم به هو شخصيًّا.. إن انتظار الإمام الغائب عند الشيعة أمر أصيل في منهجهم أكثر من أي شيء، لدرجة أن بعضهم يدعي معرفة اسمه ونسبه وأوصافه!

أما المسيحيون فتتلخص فكرة الانتظار عندهم في "الظهور الثاني للمسيح" أو القيامة الثانية والتي ستملأ الدنيا عدلًا ونورًا، وفي العهد القديم نجد أن اليهود ينتظرون قدوم

"المسيا" أو قدوم ملك اليهود المنتظر، وهو الشخص الذي سيعيد لهم مجدهم ويمكنهم من السيطرة على الكون من جديد.. الأمر أشبه بفكرة انتظار "المهندس الأعظم" عند الماسونيين أو انتظار الشخص الذي سيعيد ترتيب الكون وتشكيله.

في الهندوسية يؤمنون أيضًا بظهور ملك قوي يقضي على الشر في العالم وظهوره في صورة إلهية وأطلقوا عليه رجوع "فيشنو سيد العالم".

والمصريون القدماء انتظروا عودة "حورس" ابن الآلهة لتخليص المصريين من الشر وتحقيق النجاة.

أما في أدبيات الديانة البوذية القديمة.. نجد أن الرهبان ينتظرون دائمًا "المتأمل الجديد" أو المتنور الجديد، أو الحكيم، الشخص الذي سيخلص الناس من حيرة النفس وقيد الشهوات والضعف.. أو "الدالاي لاما"(39) الجديد، وهو من يمكن اعتباره نائبًا عن روح بوذا في ثقافتهم، أو بوذا الحي.

إذا تتبعنا تاريخ الانتظار أو ما يمكن تسميته هوس الانتظار، فسنجده أصيلًا في كل الثقافات وأغلب الأديان.. فنفس الأفكار السابقة تتكرر باستمرار.. حتى إن ثقافة الانتظار أصبحت تمثل بشكل ما فكرة "الخلاص" أو النجاة.

الانتظار أضحى يساوي التحرُّر، وهو أمر مربك جدًّا.

ما الذي دفع الناس للانتظار؟ ما الذي جعل الشابين في المسرحية ينتظران عودة "چودو"؟ وما الدافع الذي أجلس كل

هؤلاء البشر ينتظرون حدوث شيء في المستقبل وربما يكون شيء مجهول؟!

ما الذي جعل الناس تنتظر أن يصرح أحدهم بالحب وينتظرون لسنوات من أجل تصريح لم يحدث وفي الأغلب لن يحدث؟! ولماذا تجد الكثير من البشر ينتظر أن يجد حقيبة مكتظة بالمال أو يجد كنزًا مدفونًا في الأرض؟.. لماذا لا يبدأ نفس الشخص بصناعة نفس الكنز والعمل على تكوين نفس الكنز الذي ينتظره؟!

هل الأمر يرجع لرجل الكهف الذي جلس طويلًا أمام الكهف ينتظر مرور الوقت؟

لقد رأينا أن صورة المخلّص في العقائد تتحول إلى حالة من الانتظار، عند المسلمين السنة مثلًا تحولت صورة "المهدي" وتم تحويرها من فكرة "الأمل" بأنه يومًا ما سيظهر شخص حكيم يصلح ما أفسده الآخرون ويحقق العدل في الأرض ويتبعه الناس لتحقيق العدل والسلام، إلى فكرة "المنتظر" وهي فكرة تعني أن يتوقف كل الناس عن العمل وينتظرون ظهور هذا الشخص! لو تأملنا تحول الفكرة من الإيمان إلى الانتظار لوجدنا أنها عكس الأمل تمامًا.

هناك باعث في النفس يميل إلى تعلق القلب بحدوث أمر ما أجمل من الواقع حاليًا، وذلك الأمر سوف يصلح كل شيء يومًا ما.. هذا الباعث يدعو النفس للتعلق بفكرة خيالية حالمة تحلق في سماء اللاواقعية، باعث يهمس في أذنك بأن عليك فعل الأمور المعتادة البسيطة وانتظار شيء سيحدث، أو شخص

سيظهر وستتغير كل حياتك للأفضل بعدها.. وهذا هو الانتظار السلبي العجيب الذي لا يتسق مع أي منطق..

أما الانتظار الإيجابي، يمكن تسميته بالصبر، وهو تحمُّل تبعات وظروف موقف أو حالة أو فترة مع السعي للخلاص منه، إن الخلاص لن يحدث إذا انتظرته ألف عام، لكن ربما لو سعيت للخلاص تنجو في أقل من عام.. رغم ذلك ينتظر الإنسان لأن الأشياء السيئة قد تحدث وتتوقف قدرتنا على التصرف فننتظر؛ لأن الوقت أحيانًا يكون علاج بعض المواقف، لأن مرور الزمن يشفي أثر الانكسارات القديمة، لأن الندوب تلتئم مع الوقت في أغلب الأحيان، ينتظر الإنسان لأنه في بعض الحالات يكون من الحكمة أن تنتظر.. ولكن إذا كان ولابد فلنجعل الانتظار صبرًا جميلًا، فليكن الصبر وسيلة للخروج للنور وليس استسلامًا للظلام.

كنت أضيع في أحلام اليقظة وأنا أنظر للأراضي الخضراء تمر سريعًا من نافذة القطار، وكان الشرود يسافر بي لأماكن بعيدة لم أصل لها من قبل، لولا مقاطعة مشرف القطار ليفحص تذاكر الركاب..

مددت يدي بالتذكرة ونظر لها في أقل من ثانية ثم خط عليها خطين بالقلم الأحمر وأعادها لي مبتسمًا وهو يتأمل النظارة العملاقة وجراب البايب وأدوات التدخين ثم تطوع بالكلام وهو حازم ومبتسم "التدخين ممنوع هنا، العربة رقم ٤ بها الكافتيريا ومسموح فيها بالتدخين". شكرته وانتظرت رحيله؛ لأني أشعر بالتوتر من نظرات الآخرين وبقائهم الطويل، أحب أن تمرق

الأشياء سريعًا مثل عواميد الإنارة القريبة من القطار المسرع.. لكنه لحظي العسر قرر البقاء منتظرًا تذكرة الفتاة بجانبي..

وقفت تبحث في جيوبها عن التذكرة، ثم فتحت طاولة الركاب وأفرغت محتويات حقيبة يدها بالكامل، لم أرغب في التلصص ولم أستطع منع عيني من الزوغان لمتابعة ما يحدث.. بدأ الرجل يتأفف وبدأت الفتاة في التوتر والارتباك وكرجل كبير يحب متابعة العجائز والشرود مع نوافذ القطارات وتدخين البايب لم يناسبني كل ما يحدث، أسافر بالقطار للهروب من توتر قيادة السيارة، وأهرب من الالتزام بالشرود، أعيش حياة استثنائية على الهامش ولا أحب التورط في الأمور الأساسية.. ولحظّي فإن الفتاة بدأت في نوبة توتر شديدة وبدأ صوتها يختنق وعيناها تحتقنان وهي تعيد فرز كل مقتنيات حقيبة اليد، أصابع روج، وحلوى، وشوكلات، أدوات تجميل لا أعرف أسماءها، محفظة، إسفنجة لغسل الصحون لا زالت غير مستعملة، أشياء أخرى لا أعرفها، كاميرا صغيرة ذات تقنية الطباعة الفورية للصور، أقلام، مدونة، أصابع روج أخرى.. الحقيقة أن الحقيبة كانت تحتوي الكثير من أصابع الروج، لكنها لم تحتوِ التذكرة..

نظر لها مشرف القطار وأخبرها أن عليها ترك الكرسي أو دفع تذكرة جديدة مع الغرامة، وعندما فشلت كل المحاولات كان عليها أن تترك الكرسي فعلًا، وفكرت أن أعرض عليها دفع ثمن التذكرة لها، لكني خفت لو تكون مصابة بهوس ما وتعتبر موقفي ذلك تعديًا على خصوصيتها إلى أن تدخلت السيدة

الأربعينية وطلبت من الفتاة أن تذهب لعربة الكافيتريا وتبحث في حقيبتها مرة أخرى..

بعد خروجها حانت لي الفرصة للجلوس مكانها بجوار النافذة، وهو الأمر الذي تمنيته وكنت ألمحها في الممر خلف الباب الزجاجي للعربة تتحدث بانفعال مع المشرف..

نظرت إلى الطريق، كانت الأراضي الخضراء قد اختفت وبدأت تظهر قرى ومدن ريفية تحولت بيوتها إلى عمارات شاهقة..

طرق تمر وطرق تذهب ويذهب معها عقلي إلى ذكريات بعيدة، أبعد من المسافة التي قطعناها منذ الخروج من محطة القطار..

أرجعت مسند الكرسي للخلف، غلفت أذني بسماعات عملاقة بها موسيقى شجية تناسب تدفق الذكريات، نظرت إلى الطريق الذي يمرق بسرعة، نظرت إلى البيوت البعيدة التي تمر ببطء وتخيلتها كهوفًا تحوي الكثير من الأسرار والأحلام والأماني.

نظرت إلى أعمدة الإنارة التي تمر سريعًا.. وكنت أشرد وأضيع في ذكريات الطفولة وحدي عندما كنت أمرق في الشارع جريًا وأنا أمدد ذراعيّ كجناحي طائر وأنظر للسماء.

***

فلسفة السفر

في السفر نتعرف على الغرباء، في الحب نتزوج الغرباء!

نبرع نحن البشر في الحياة مع الغرباء، الأكل مع الغرباء، السفر مع الغرباء.. عندما يتعلق الأمر بالأقربين منا تبدأ الحساسيات في الظهور.. لكن ذلك الجدار الذي ينشأ نتيجة الحساسية في التعامل مع الأهل وبعض الأصدقاء في أحيانٍ كثيرة، يسقط فورًا في لحظات الانهيار.. أما هؤلاء الغرباء الذين نفعل معهم أو أمامهم أشياء كثيرة فإن جدارًا آخر أكبر يظل بيننا مهما فعلنا وهو جدار الثقة.. الغريب يظل غريبًا عنك، يمكنك الاعتراف له بحكاية عابرة، أو الاعتراف له بحكاية شخصية جدًّا لكنها تظل عابرة؛ لأنه هو نفسه عابر في حياتك.

كونه عابرًا يجعل كل الأمور ممكنة، كل الأمور يمكن أن تبدأ وتنتهي دون أن يتورط أي شخص.. لهذا السبب ربما نفعل أشياء كثيرة مع الغرباء.

كنت أسأل نفسي كثيرًا لماذا ينشأ دومًا حوار ممتد مع سائق التاكسي والحلّاق؟!

قاطعت سيل شرودي وأفكاري السيدة الأربعينية ذات النظارة السوداء، وطلبت مني أن أذهب لأعرف ماذا حدث للفتاة، وأن أساعدها.. قلت لها سيمر مشرف القطار ونسأله، فبدا عليها الامتعاض وكأني تخليت عن أداء واجب عائلي، ما الذي يدفع تلك السيدة لمعاملتي كأحد أصدقائها؟!

جرب أن تفتح حوارًا في مواصلة عامة وستجد الجميع يتحدث ويشارك برأيه في الموضوع، أو هكذا هو الوضع في مصر، وكنت أظن الأمر في مصر فقط حتى زرت فرانكفورت وفي الليلة الأولى لي في المدينة قمت بالطقوس المعتادة للسفر لمدينة جديدة، وهي جولة حرة في كل الشوارع المحيطة لمدة ثلاث ساعات لاكتشاف جغرافية المكان.. وعندما كنت أمرّ بالمنطقة المواجهة للمحطة المركزية، أوقفني حوالي عشر فتيات في سن العشرين، كنَّ يمشين سويًّا، ثم طلبن مني الرقص معهن في الشارع!

كان الانطباع الذي كوّنته عن ألمانيا أنهم شعب لا يحب التحدث للغرباء، ربما الرقص معهم فقط!

ولكن بعد ذلك سأزور عدة مدن ألمانية وسأكتشف أن نفس الفكرة موجودة، الحديث مع الغرباء أمر رائج جدًّا.. أو ربما لكوني رجلًا "غريبًا" يبدو عليه مواصفات الشرق أوسطية، ولا يبدو عليّ الخطورة؛ فذلك يمنحني مبررًا قويًّا لفتح حوار..

في عدة مدن أوربية أخرى سأكتشف أنهم يحبون الكلام مع الغرباء، "ستوكهولم" مثلًا مدينة ترحب بالكلام مع الغرباء وعمل بيزنس معهم، وأمستردام مدينة ترحب بكل شيء مع الغرباء، الكلام، الضحك، ركوب الدراجات، الغناء، وربما النوم معهم أيضًا.. لا أعرف هل يحبون الرقص في الشارع مع الغرباء أم لا؟

في الدول العربية جرب أن تستقل سيارة أجرة وتبدأ حديثًا مع السائق، وربما في نهاية الرحلة تصل بينكم الصداقة أن يدعوك

للعشاء في منزله..

وأتخيل أن الألفة تنشأ مع الغرباء سريعًا وتنتهي سريعًا كشعلة أعواد الثقاب، ولكن لماذا لا تنشأ المشاكل مع الغرباء؟! وأقصد بالمشاكل هنا، المشاكل النفسية. اسأل أي شخص هل جربت الخذلان يومًا؟ أن يكسر أحدهم بخاطرك أو لا يكون في محل ثقتك به، أو أن يفعل شيئًا نذلًا معك.. على الأرجح ستجد أي شخص تعرض ولو مرة واحدة للخذلان.. اسأل نفس الشخص هل خذلك مرة شخص غريب؟ وستكون الإجابة حتمًا "لا".

لماذا لا نتعرض للخذلان من الغرباء؟ لأننا لا ننتظر منهم شيئًا.. لا تتوقع أي شيء من الشخص الغريب.. أما الصديق/ الحبيب/ الأهل/ والأشخاص القريبون منك فأنت تتوقع منهم الكثير من الأمور، وكلما توقعت أكثر وزادت دائرة العشم كلما تعرضت أكثر لاحتمالات الكسر والخذلان!

أنت تنتظر من حبيبك أن يستوعبك لكنه لم يفعل! تنتظر من صديقك أن يكون بجوارك في هذا الموقف، لكنه انشغل عنك، تنتظر من رفيقك في العمل أن يتحمل عصبيتك اليوم، تنتظر وتنتظر.. توقعات لا نهاية لها.. الأم تتوقع أن يستمع إليها أبناؤها بدلًا من الانشغال بالهواتف واللعب، والشاب ينتظر من أهله أن يفهموا كل رغباته.. والمحبون ينتظرون من شركائهم أن يفهموهم دون تصريح، والمدير يتوقع من الموظف أن يحدد الهدف من تلقاء نفسه وينجح في تحقيقه.

والسؤال هنا:

الشخص الذي انتظرت أن يستوعبك.. من أخبرك أنه لا ينتظر في نفس اللحظة أن تستوعبه؟

الشخص الذي توقعت أن يتحمل عصبيتك وانفعالك، من أخبرك أنه لا ينتظر في نفس اللحظة من يتحمل عصبيته؟ وإلى أي مدى تطلب منه التحمل؟ وهل تعرف كيف يفكر هو أو ماذا حدث له قبل أن يقابلك بدقائق؟

السؤال الأهم من الذي خذل الآخر؟

نحن نقع في فخ الخذلان مع الأشخاص القريبين؛ لأننا نحن الذين انتظرنا منهم أمورًا كثيرة، ربما أكثر من اللازم، وربما أكثر من المفروض في اللحظة الحالية.. أزمة التوقعات التي اختلقناها هي التي صنعت الخذلان، نحن الذين نخذل أنفسنا.

أن يقترب منك شخص ويصبح صديقًا فهذا يعني أن يكون مأمنك وأمينًا على أسرارك وقريبًا منك عند الحاجة، ويعني أنه قد يستعين بك يومًا ما فجأة لتأخذ صفّه في أزمة أنت لا تعرف عنها شيئًا!

أن تقترب منك فتاة وتصبح زوجتك، ذلك يعني أنها قد توقظك فجرًا وهي تبكي لأنها تذكرت عندما كانت تبكي في إحدى المرات وأرادت أن تمسك يدك لحظتها لكنك كنت مسافرًا!

هي أمور لن تحدث مع الغرباء أبدًا، لكن هي أمور بها بعض الجمال.. فكر في الأمر ماذا لو أنك أيضًا يمكنك أن توقظ أحدهم لتخبره عن أمر يهمك وتسمع رأيه، هي أشياء لا يمكن

أن تصل إليك "ديليفري".. أشياء لا تحدث إلا بين الرفقاء الطيبين، ولا يمكن أن تحدث مع الغرباء.

المفارقة أننا إذا تعرضنا للأذى من شخص غريب فسوف يمر الموضوع، لكن لو تعرضنا للأذى من شخص قريب فسوف ينكسر جدار في القلب.. ربما أنه من الطبيعي أن نمنح للقرب حقًّا مغايرًا، أن يكون للقريب حق في اكتشافي، ويكون لي حق في أن يتحملني.. وإلا ما فائدة القرب؟!.. ولكن تكمن الحكمة في وضع ميزان، لنتعلم كم نتوقع ومتى علينا أن نعامل القريب كغريب وماذا يمكننا أن نحكي للغريب كقريب..

ويحضرني هنا تساؤل: متى يمكننا أن نجعل أحد الأشخاص يتجاوز مساحة الغربة؟

ما هي حدود الغربة؟ ومتى تتساقط تلك الحدود فيصبح ذلك الشخص من الأقربين؟ هل تكفي الثقة؟ هل تكفي الأيام؟ هل تكفي المعاملة؟

متى ينهدم الجدار ويصبح لهذا الشخص تحديدًا الحق في الدخول والجلوس والجري وربما اللعب في مساحتي؟ وما هي الحواجز التي يجب أن أجعلها متحركة وليست متساقطة؟ هل أزيح كل الحدود؟ أم أصنع حواجز زجاجية قابلة للطي؟ أضعها حيث أشاء ووقتما أشاء..

كلها أسئلة أهم من القرب نفسه؛ لأن القرب غير الآمن أخطر من الغربة العابرة!

كنت أجلس في المقعد بجوار النافذة في ذلك القطار

الصباحي، وباغتني طفل سمين ذو وجه دائري منتفخ وسألني عن الكرسي الفارغ بجواري، كان يسألني عن إتاحة الكرسي وهو يضع ركبته فوق الكرسي وكأنه يستعد ليركب الأرجوحة، أخذت حقيبتي من المقعد وكنت أود لو أصرفه كما يُصرف الجن، لكنه هبط في الكرسي كما تهبط مركبات الفضاء في الأفلام.. لم يجلس في الكرسي لكنه هبط حرفيًّا كمركبة!

نظر لي الطفل ذو الوجه المنتفخ وبدأ في إخراج بالون عملاق من فمه، بالون صنعه من العلكة.. وهي من المرات النادرة التي خفت فيها من الغرباء.. هنا وجدت أنني يجب أن أتحرك. قررت الذهاب لكافيتريا القطار ولممت أشيائي.. الحقيبة، وحافظة البايب والبايب نفسه والسماعات وأفرغت محتويات الحافظة الجلدية التي أمام الكرسي، كنت وضعت بها كتابًا، غير أني عندما مددت يدي وجدت الكتاب وتذكرة قطار..

تذكرة القطار الخاصة بالفتاة..

***

مواعيد الغرباء

تبدأ المواعيد بارتباك ثم تتحول إلى ونس مقيم ينير كل شيء، هكذا تعلمنا من خبرة الحياة وحكايات وأمثلة السابقين.

أقرب الناس لك ربما كنت تستغربهم يومًا ما.. ولا تبدأ حبال الود والقرب إلا بالتخلي عن الجمود ومحاولات مد الصلة.. إنما القرب بالتقرب.

عندما هربت من كرسي القطار بجوار الطفل البدين، لم يكن أمامي سوى الذهاب إلى كافتيريا القطار، هناك حيث يمكنني تدخين البايب واحتساء فنجان قهوة ببطء، بينما يمرق القطار في طريقه..

أول ما وقعت عليه عيني في الكافتيريا هي تلك الفتاة العشرينية التي تركت مقعدها ولم تجد ما تفعله سوى الانتظار في الكافتيريا الصغيرة التي تتكون من طاولة واحدة، عبارة عن بار طويل وممتد بطول العربة، لونه أبيض ولا يوجد به أي ديكورات.. بار أبيض ممتد ومثبت أمامه كراسي دائرية خشبية صغيرة وغير مريحة.. وفي نهاية البار غرفة صغيرة بها مطبخ مفتوح على البار، الأمر كله كان عاديًا، لم يشبه كافيهات القطارات التاريخية التي اعتدنا رؤيتها في الأفلام..

جلست في الكرسي المجاور للفتاة، وبخبرة رجل عجوز لم أمنحها فرصًا كثيرة للتفكير أخرجت التذكرة وقلت لها وجدت تذكرتك في الجراب الأمامي للكرسي، وقبل أن يبدأ الارتباك

أو ردود الأفعال نظرت سريعًا نحو المطبخ وطلبت بشكل حاسم قهوة تركي أقل من المظبوط.. وهو طلب يربك أي صانع قهوة.. لقد اخترعوا كل أنواع التحلية في القهوة التركي إلا النوع الوحيد الذي يناسبني.. التحلية ما بين "عالريحة" و"مظبوط".

طلبت القهوة والتفت سريعًا للفتاة، حدثتها وأنا أنظر للغليون وأشعل التوباكو "أتمنى ألا تكوني دفعتِ تذكرة أخرى".

ولمحتها من أسفل النظارة ترمقني وهي مترددة ومرتبكة وربما متحفزة..

لقد تعلمت في الماضي عدة تقنيات للتحقيقات وتقنيات أخرى لتحفيز الناس على الكلام، عندما تتحدث إلى شخص مرتاب، استفزه للكلام ثم طمئنه سريعًا قبل أن يتحدث، كن في صفه..

قلت لها سريعًا وبشكل حاسم:

قبل أن تخبريني بأي شيء أنا لا أحب التطفل، لكني تمنيت لو أساعد.

كنت لا أزال أشعل التوباكو ولا أنظر لها، يستغرق إشعال البايب حوالي دقيقة.. وجهت نظري لها وابتسمت ابتسامة هادئة، ثم سألتها لو أن التدخين سيضايقها؟

وهنا كان عليها أن ترد على السؤال.

= المكان كله يدخن، لا مانع، تفضل.

- هل دفعتِ تذكرة جديدة؟

= كنت سأفعل عندما يعود الكمسري.

- الحمد لله أنني لحقت بكِ.

= وهل لحقت بي؟

كانت الجملة مثيرة للريبة فعلًا وكأني ألاحقها، أنا مؤمن أنه أحيانًا عندما نريد إصلاح أمر ما قد نفسده، ربما يكون من الأفضل أن نتعامل بطبيعية.. قلت لها: "عندما ترجعين إلى مقعدك ستكتشفين لماذا قررت الهروب إلى هنا!".

وسألتني بفضول عن السبب، فأخبرتها عن الطفل الذي هبط من السماء وابتسمتُ فضحكت، ثم سألتني لماذا كنت ألاحقها بنظراتي في كافيتريا محطة القطار في الصباح..

تبدأ المواعيد بارتباك، ثم تتحول إلى ألفة، غير أن هذا الموعد يتحول إلى كارثة أو على أقل تقدير يتحول إلى استجواب!

قاطعنا الساقي، وأحضر القهوة، وسألته عن السكر، فقال لي أقل من المظبوط، وابتسمت له.. أخذت نفسًا عميقًا من البايب وأخرجت قدرًا كثيفًا من الدخان وأنا أنظر لأعلى ثم أخذت رشفة من القهوة.. نظرت للساقي مرة أخرى وابتسمت.. يوجد سحر عجيب في الابتسامات، يمكنك أن تكسب أي موقف بحيلة بسيطة، فقط تبتسم.

رجعت برأسي للفتاة وسألتها هل كنتِ في الكافتيريا صباحًا؟

يبدو أنك من كنتِ تتابعيني.. وقبل أن تجيب سألتها هل تسافرين عادة وحدك في رحلة الثامنة صباحًا.. كانت فتاة صغيرة تشبه ابنة جارتنا التي ربيتها وهي صغيرة، ولم أكن أحاول التقرب منها، بقدر ما كنت أرغب حقًّا في المساعدة..

ظل الحوار يذهب ويعود بشكل متقطع يتخلل الحوار رشفات من القهوة ودخان يعبئ المكان، وابتسامات متطايرة في الأجواء.. كنت أنظر لها بعض الوقت وهي تتحدث، وبعض الوقت أنظر للغليون أو لفنجان القهوة، وأحيانًا أراقب عامل المطبخ وهو يتكوم على هاتفه المحمول في آخر الركن..

عرفت عنها أمورًا عابرة وعرفتْ عني أمورًا عادية، لقد مضى العمر وتعلمنا ألا نخبر الغرباء كل شيء عنا دفعة واحدة، والأفضل ألا نخبرهم إلا بالأمور العادية العابرة التي لن تشكل أزمة لو عرفها العالم عنا.. أما تلك الأسرار فلا نبوح بها إلا لمن يستحقها، وبعض الأسرار لا يجب أن تخرج أبدًا خارج الذات، ربما لا يجب أن نتذكرها مرة أخرى، تلك الأسرار التي تمثل سقطات في تاريخنا!

بعد عدة أسئلة عادية جدًّا سألتني الفتاة بشكل هادئ سؤالًا عاديًّا جدًّا لكن إجابته تحمل الكثير من الحيرة، كان سؤالها: "ولكن ماذا تعمل؟"

أنا أعمل مفكرًا.

ضحكت ثم سألتني:

= وتلك وظيفة؟

- مممم ليست وظيفة لكنها عمل بالتأكيد.

= احكِ لي.

الأمر يطول شرحه، المفكر هو شخص مهموم بالبحث عن ما هو وراء الأشياء، في الماضي كانوا يسمونه فيلسوفًا، كان الفيلسوف لا يعمل فيلسوفًا، لكنه يطرح الأسئلة ويبحث عن حلول، ويفكر فيما وراء الأشياء، يبحث عن خالق الكون، وعن سبب الحياة ومعنى الحياة، الفيلسوف كان يبحث عن القيمة المتمثلة في حياة الأشخاص، وكان يبحث عن سبب الموت، وطبيعة الروح وما هي النفس وما هو التفكير وما الفرق بين التفكير والمشاعر، ربما يمكننا القول إن الفلاسفة هم أول علماء نفس في التاريخ، ثم إنهم لما بحثوا عن الموت بدأوا في اكتشاف فكرة الخلق والبعث والحساب، لقد توقف الفلاسفة عند سؤال الخلق كثيرًا وعند سؤال الموت كثيرًا..

لمعت عيناها وسألتني في فضول: ولكن لماذا الموت والخلق تحديدًا؟!

لأن الحياة والموت كانا لغزين كبيرين، هناك أسئلة تنشأ داخل كل إنسان، صوت داخلي يسأله من أين بدأ كل شيء، وكيف ينتهي كل شيء.. لذلك انشغل الإنسان بالخلق الأول وبالموت..

قالت الفتاة: وماذا اكتشف الفلاسفة عن الموت والخلق؟

أما الخلق فكانت هناك حكايات أسطورية من الآباء يمكن سردها وتلخيصها في فكرة أننا نسل آبائنا الذين هم نسل

الأجداد، لقد تخيل البعض أننا من نسل متتابع إلى ما لا نهاية، والبعض أرجع النسل الأول إلى الخلق الأول لآدم النبي.. والبعض الآخر أرجع الأمر إلى فكرة وجود الطبيعة المنظمة للكون، والبعض أرجع بداية الخلق إلى قصص أسطورية عن مجموعة من الخالدين أرادوا أن يتسلوا فخلقوا البشر.. كان هناك دومًا حكاية عن البداية الأولى يمكن ترديدها وسردها.

ولكن بماذا تؤمن أنت؟ لا تحدثني عن الأشياء وكأنك تقدم بحثًا علميًّا.

ماذا تنتظرين من شخص مسلم؟ بالطبع لديّ أفكار عدة عن نشأة الكون والخلق، محاولات للفهم وبحث في العلوم والأحوال، لكن نؤمن كمسلمين أن الخلق الأول بدأ مع خلق سيدنا آدم، وهكذا تؤمن كل الديانات الإبراهيمية، رغم وجود نظريات علمية متعددة في هذا الخصوص، لكن يظل الإيمان غيبيًّا لا يمكن تفسيره علميًّا، ويظل العلم واقعيًّا لا يستند إلى الغيبيات.

كنت سأجادلك قليلًا هنا لكن اقتنعت نسبيًّا، كلمني عن ماذا وجد الفلاسفة في الموت؟

الموت فكان لغزًا كبيرًا، ولقد عجز الإنسان العادي عن صياغة أفكاره حول الموت، لكن الفلاسفة بدأوا في صياغة الموت بمفهوم شامل، لأن الموت يبدأ ببداية الحياة نفسها.. لحظة ميلاد حياة شخص هي لحظة ميلاد موته المؤجل!

الناس يتخيلون أن الإنسان يموت في نهاية عمره بعد أن يعيش أيامًا طويلة ويخوض الكثير من التجارب، لكن في واقع الأمر الموت قد بدأ فعلًا مع خروجك الأول من رحم أمك.. ولولا ذلك الهواء الذي دخل رئتيك للمرة الأولى وملأهما بعدما سُد ثقب القلب القديم(38) لولا ذلك النفس الأول لما كان الموت موجودًا أبدًا.. إنما هو مؤجل للحظة مخفية.

وفكرة إخفاء موعد الموت عنا فكرة مثيرة للتساؤلات.. ماذا كان سيحدث لو كنا نعرف موعد موتنا؟! أليس كل إنسان يتمنى لو كان يعرف موعد موته فيبدأ بترتيب الأمور، يستعد للرحيل ويودع أحبابه، ويستغفر لذنبه ويصحح المسار قبل الموت بفترة؟! أليست أمنية عادلة أن نعرف موعد موتنا وموعد موت أحبابنا؟!

ولكن في الواقع هي نظرة قاصرة، تخيل لو كنت تعرف موعد وفاة أمك.. ربما تملكك الموت كل يوم ألف مرة وأنت تنتظر ذلك التاريخ، وربما عشت سنوات في عد تنازلي وفي الشهر الأخير لها سوف تموت هي في اليوم الواحد بعدد أنفاسها حزنًا على أبنائها وخوفًا من الرحيل والوداع!

لقد تعرض منفذو حكم الإعدام لحالة من الهلع المتكرر بسبب تصرفات وهلع وهيستيريا المحكوم عليهم بالإعدام عند تنفيذ الحكم، ورغم أن المحكوم عليه بالإعدام كان يعلم بالحكم، ويعلم بقرب الرحيل وبتاريخ التنفيذ أحيانًا، غير أن لحظة الرحيل كانت لحظة خاطفة لدرجة أن أغلبهم كان يؤذي جسده ونفسه والبعض الآخر كان يخر في الأرض ساقطًا في

جلده وممتنعًا عن الكلام ولا يستجيب لعبارات رجل الدين الذي يأتي للتثبيت والتذكير بالتوبة والاستغفار..

لقد ابتكر السجانون اللون الأحمر للمحكوم عليهم بالإعدام لسببين رئيسيين، أحدهما هو الرمز النفسي للون الأحمر، فهو لون الدم، رمز الخطورة.. أن هذا الشخص ارتكب أمرًا خطيرًا؛ لذلك ربما يجب متابعته بشكل أقوى خصوصًا؛ لأن أغلب من يحاول الهرب من السجون هم المحكوم عليهم بالإعدام؛ لأنه ليس بعد ذلك من عقوبة أكبر، وبالتالي فلا ضرر من المحاولة.. كذلك ما يمثله هذا اللون من رمزية على السجين نفسه بأن موعده قد اقترب، وهذا التمهيد النفسي قد يقلل من حدة ردة الفعل في لحظة التنفيذ.. غير أن التمهيد النفسي للسجين لم يكفِ، لذلك لجأت بعض السجون إلى ابتكار أبواب بمفاتيح وأقفال لا تصدر صوتًا عند فتحها، وتم اختيار أكثر الأوقات التي يكون فيها السجناء نائمين، بعد الفجر، وتشكل لجنة تدخل في صمت مهيب ليتم مفاجأة السجين بتنفيذ الحكم.. هنا في تلك اللحظة تحديدًا تسقط كل الآمال بالخروج، وتتحول الهيستيريا أو السقوط التام إلى عملتين لا ثالث لهما هما كل ما يمتلكهما السجين ويصبح كل ما تبقى من الحياة هي إجراءات متبعة تتمثل في شربة ماء ولقاء مع رجل دين وسؤال عن آخر الأمنيات ثم الموت.. السؤال هنا: ماذا يشكل السؤال عن الأمنيات من معنى في هذا الموقف؟! لو افترضنا أن كل الأمنيات يمكن تحقيقها في اللحظة الأخيرة قبل الموت، هل يعني تحقيقها شيئًا؟ إن أهم ما يسعى إليه الإنسان في تحقيق الأمنيات أن يمكث أطول فترة ممكنة

يستمتع بها بعد تحقيقها، كل ما هو غير ذلك لا يعني شيئًا.

مر علينا مشرف القطار، وتوقف ليسأل الفتاة لو كانت ستدفع ثمن التذكرة أم يوقع عليها غرامة، وأخبرها أنه تركها فترة كافية لتتدبر أمرها، تعجبت من صبرها وهدوء أعصابها الشديد، رغم أن التذكرة أصبحت معها إلا أنها لم ترد عليه، نظرت إليه نظرة انتقامية هادئة.. ولما بدأ في الارتباك دفعت إليه بالتذكرة، فخط عليها خطين بالقلم الأحمر ورحل.. سألتها عن نظرتها الانتقامية، وقالت لي: إنها مستفزة منه؛ لأنه أخرجها من مكانها ودفع بها إلى هنا.

قلت لها أن الأشياء السيئة قد تحدث أحيانًا لسبب، لولا خروجك إلى هنا لما تعرفنا وتحدثنا.

قالت في تبسم: هل تعلم أن أبي دائم التفلسف مثلك، لا يترك موقفًا إلا وتبدأ نظرياته حتى لو جاء الشاي مرًّا زيادة أو حلوًا زيادة حتمًا سيبدأ في نظرية عن ذلك، قالتها وضحكت، وتخيلت نفسي بنظرياتي عن الحياة، فعلًا لو جاء الشاي مرًّا أو حلوًا أو مع عود نعناع طازج سأبدأ في التنظير، تخيلت الموقف وضحكت، ثم سكتنا لحظات إلى أن قالت البنت، لكني أريد أن أعرف متى سأموت، أحب المفاجآت في كل شيء إلا ذلك الموقف.. أكمل لي نظرياتك عن الموت.

نظرت إلى زجاجة الماء أمامي ورحت أحكي دون أن أنظر إليها، أحيانًا كثيرة يروقني ألا أنظر في عيون الناس وأنا أتحدث إليهم، قلت لها: لو تخيلنا معًا معرفة موعد الموت فإنها ربما ليست فكرة جيدة، تخيل أن يعرف أحد المجرمين

موعد موته، ما هي احتمالات أن يتوقف عن الأذى والشر قبل موته بأعوام؟ ربما تقترب من الصفر.. في الأغلب سيكون اختياره أن يفعل كل مصائب الدنيا طالما موعد موته لم يقترب ثم يتوقف قبل موته بأسبوع ويتوب.. لو افترضنا أنه أصلًا يهتم بفكرة التوبة أو كف الأذى قبل الموت.. لقد فعلها إخوة يوسف من قبل، قالوا نلقيه في البئر أو نتخلص منه ثم نتوب.. ولكن أخذتهم الدنيا والحياة والعزة بالإثم وتأخروا عن التوبة سنين طويلة حتى سجدوا ليوسف بعد أن أصبح سيدًا.

الموت شغل فكر الفلاسفة؛ لأن اللحظة التي يموت فيها الإنسان ويتوقف عمله تكاد تتحدث، تلك اللحظة تكاد تنطق وتسأل أين ذهبت الروح؟ ماذا حدث للطاقة التي كانت تدفع هذا الجسد للجري والمشي والضحك واللعب؟ وأين يذهب الإنسان فيما بعد؟

عندما يموت آباؤنا نسأل أنفسنا عن قوة الرابط الذي جمعنا بهم.. ربما في حياتهم لم نشعر بذلك الرابط بيننا بنفس القوة، أما لحظة وداعهم نفكر في كل التفاصيل.. أكثر ما نفكر فيه هو أين تذهب أفكارهم وذكرياتهم؟

حقًّا أين تذهب كل تلك الحكايات عن ذكريات طفولتهم وأيام شبابهم ولحظات الفرح ولحظات الفشل والنجاح والسقوط والقيام، أين تذهب أحلامهم عنا وأمنياتهم لنا وضحكاتهم وطريقتهم في المزاح وفي الاهتمام والونس وخواطرهم عن الحياة ونصائحهم التي تعلموها من خبرة الأيام.. هل تختفي كل تلك الأفكار والأمنيات مع الموت؟ هل تذهب مع الروح؟

هل عندما نقابلهم في عالم آخر سيذكرون حياتهم الأولى بتفاصيلها معنا؟ أم أن هناك حياة جديدة تنشأ مع النشأة الأخرى؟

وفي الحقيقة فإن كل تلك الأسئلة التي تبدأ مع الموت لا تنتهي، لذلك فإن فكرة الخلق الأول تكتمل بفكرة الموت، ولحظة أن وقف الفلاسفة أمام سؤال الموت بدأت إجابات كثيرة تتكون عن نشأة الكون، وعن ضرورة فكرة "الخلق"؛ لأنه لا يتصور أن ينتهي الإنسان إلى العدم دون حساب ومثوبة وعقاب، ولا يتصور أن الروح كانت مجرد تيار من الطاقة وقد انقطع فجأة!

وهذا التصور الذي دفع بعض الفلاسفة إلى الإيمان بالخلق بسبب أسئلة الموت، ودفع بعض الفلاسفة الآخرين المتشككين إلى فكرة أن أسئلة الموت جعلت الآخرين المؤمنين يخلقون الإله.. لقد تخيل المتشككون أن المؤمنين خلقوا إلهًا؛ لأنهم لم يجدوا إجابات على أسئلة الموت لذلك أسندوا الأمر إلى ضرورة وجود إله.

لكن ما لم يفهمه المتشككون أن الموت نفسه هو الإجابة.. إن أسئلة الموت ما هي إلا إجابة على السؤال الأول "كيف بدأ الخلق؟"(37).

ولإجابة السؤال الأول عليك أن ترى ماذا يحدث في نهاية الخلق، وهو الموت، وبهذا قد تفهم أن من خلق كل شيء يعود إليه كل شيء، أو هذا ما قد يفسر لنا الأمر كمؤمنين، أما من يحاول أن يقنعني بالشك فأقول له إنني لا أحب أن أبني

قناعاتي على الشك، ولكن أحب أن أبنيها على اليقين..

فكرة الموت أبعد من المعروف عنها بانتهاء الحياة نفسها، ولكن يمكن النظر لانتهاء الحياة كمقدمة لفكرة الحساب.. لا أتخيل أن ينتهي العالم بلا حساب كما يؤمن من يعبدون الطبيعة ويشككون في وجود إله.

أليست فكرة في غاية الظلم أن تنتهي حياة الناس بلا حساب؟ ولكن ماذا لو انتهت حياة الظالمين ولم يحاسبوا؟! ماذا لو ظلمني أحدهم، سرقني، ضربني، أو كذب عليّ وتحدث في سمعتي وشرفي ولم أستطع أن أخذ حقي منه؟! ماذا لو مات شخص ثم بعد موته اكتشفت أنه خاض في عرضي وسمعتي لسنوات وتسبب في أذى كبير لي.. وانتهت كل الفرص لرفع الضرر أو رد الأذى؟!

أتخيل لو حدث ذلك ثم لا حساب! هي فكرة ظالمة بامتياز.

إن الإيمان بوجود حساب نوع من الأمل، الأمل في وجود العدل، الأمل في رد الظلم، الأمل في المثوبة.. الأمل في التقدير.. نحن نبحث عن التقدير الذي يليق بنا في كل ما نفعله، ولكن إذا لم يوجد حساب فإن فرصة التقدير الحقيقية قد تلاشت!

أتخيل أن أحبس عن نفسي شهوات وجموحًا وأمنع نفسي من الكسب غير المشروع، وأروّض نفسي وأهذبها؛ أملًا في تقدير كل ما فعلت في الحياة الأخرى.. ولكن لو كان لا يوجد حساب وحياة أخرى فقد ضاعت كل أعمالي سدًى، ذهبت كل

أعمال مع الربح، بل إن فكرة عدم وجود حساب باعثة على الفساد، لأنه لماذا نهذب أنفسنا ونمتنع عن الشر والأذى إذا كان الجميع سيموت في النهاية بلا حساب، الطيب والظالم سيستويان.. إن فكرة الموت كبوابة لعالم الحساب والجزاء فكرة عادلة ومنطقية ومطمئنة..

لقد آمن المصريون القدماء بفكرة الحساب، وقدموا لها قصة عظيمة يتم فيها وزن قلبك الذي يمثل أعمالك في مقابل ريشة الحق أو ريشة الآلهة "ماعت" وإذا رجحت الريشة هذا يعني أن القلب غير مثقل بالذنوب والظلم وبهذا يذهب الشخص مع حورس إلى الجنة حيث الأرض الطيبة التي أعدها أوزوريس في الآخرة.. أما لو رجحت كفة القلب في الميزان فهذا يعني أن القلب مثقل بالخطايا والذنوب والمظالم، وبهذا يذهب الشخص إلى الحساب/ العقاب بصحبة الإله أنوبيس، حيث يتم أكله بواسطة حيوان يسمى "عمعموت" له رأس تمساح وجسم أسد ومؤخرة فرس النهر.. هكذا نَظَرَ المصريون القدماء للحساب، ورأوا أن الإنسان لابد محاسب على أعماله في الدنيا.. ولو تتبعنا فكرة الحساب فسنجدها حاضرة في أغلب الثقافات والأديان، والإيمان بالحساب شيء باعث على الأمل وباعث على الشعور بالطمأنينة؛ لأنك تعلم جيدًا أن ما تفعله من خير وما تتصف به من قيم ستجد من يقدره، وإلا فلا معنى لكل ما تحاول فعله من جمال، ولا معنى لكل ما تعنيه القوانين وتنظيم الحياة.. لأن الحساب في الآخرة هو الذي أمدنا بفكرة سن القوانين والثواب والعقاب في الدنيا، ولو أن الآخرة بلا حساب فالأولى أن تكون الحياة الدنيا بلا حساب.

إن الموت كان مقدمة لفكرة الحساب، ويمكن أيضًا أن يكون مقدمة لفكرة الحياة نفسها.. ولكي نتخذ الموت مدخلًا للحياة فإن الأمر يحتاج إلى الكثير من الفلسفة..

ربما أن مفهوم الحياة لا يمكن تفسيره وتوضيحه إلا بالموت، فما الدليل على الحياة لولا أننا غير ميتين؟ لا شيء.

إذن نحن نحتاج لفكرة الموت حتى يمكننا إدراك حقيقة الحياة، ونحتاج ألا نعرف موعد النهاية، لأن بتخيل معرفة تاريخ الموت، مجرد التخيل يجعل السيناريوهات كلها قاتمة..

كون الموعد مخفيًّا كان أمرًا حكيمًا.. ثم إن فكرة الموعد المخفي تدعو للترقب المستنير.. أن تترقب دون انتظار، تترقب الأمر فتعد له عدة، ولا تنتظر الأمر انتظارًا مميتًا..

الفلاسفة فكروا في كل شيء كما فكروا في أسئلة الموت، كذلك فكروا في الطب، ووضعوا النظريات، وحاولوا اكتشاف علوم التشريح ووضعوا قوانين الهندسة والرياضيات في صورتها الأولى، واكتشفوا الكثير عن الفلك، وأسسوا للبحث العلمي وبحثوا في الطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات، ويمكن القول إن الفلاسفة لم يتركوا مجالًا ولا تفصيلة على وجه الأرض مادية أو معنوية إلا وطرحوا فيها العديد من الأسئلة ولولا هذه الأسئلة ما كانت الإجابات؛ لأن الأسئلة التي بدأت من الفلسفة لم تكن مجرد أسئلة بل كانت بحثًا.. كانت تساؤلات تبحث عن الحقيقة، تبحث عن المعنى، وتبحث عن الحكمة وتبحث في تفاصيل الكون والإنسان.. الناس

مشغولون بإيجاد الإجابات النموذجية والبحث عن الحلول، أما الفلاسفة فمشغولون بالبحث عن الأسئلة النموذجية؛ لأن السؤال يدعو للتفكر والبحث، السؤال هو بوابة الإجابة والسؤال في أغلب الأحيان هو الإجابة ذاتها؛ لأن بالسؤال يبدأ البحث.. والبحث هو طريق الوصول لإجابات، والبحث قد يكون هو نفسه الإجابة.

قاطعتني الفتاة وأنا أحكي وأحكي، قالت: وهل كل مفكر فيلسوف؟ أنت قلت إنك تعمل مفكرًا أحب أن أفهم أكثر ماذا تعمل؟

كانت شعلة التوباكو قد أوشكت على الانطفاء، طلبت فنجان قهوة آخر وقبل أن أخبر موظف البوفيه بطلبي ابتسم وقال: "أقل من المظبوط، لا هي عالريحة ولا هي مظبوط" وطلبت لها فنجان قهوة معي.. القهوة تمنحنا القدرة على الكلام.. هي لغة عالمية كالموسيقى، لا يهم أن نفهم لغة بعضنا لكن يمكننا الاستماع إلى الموسيقى معًا أو شرب القهوة.

أخرجت عود الثقاب الطويل وأعدت إشعال التوباكو في الغليون، سحبت نفسًا عميقًا وأيقنت أن عمري نقص دقيقتان على الاقل بذلك النفس، قرأت فيما سبق أن كل نفس دخان ينقص من عمر صاحبه دقيقة، كانت معلومة طبية متداولة، ولكن هل يوجد ما يؤكد ذلك حقًّا، إذا كنا لا نعرف أعمارنا فكيف نعرف بمقدار نقصانها؟

حضرت القهوة وعدنا للحديث عن الفلسفة.. قلت لها أنا مفكر، في الشركات العملاقة يحضرون أشخاصًا يسمونهم

الحالمين، يخصصون لهم غرفة مريحة للأعصاب وبها كل وسائل الراحة، يتركونهم يتحركون داخل الشركة ويتحدثون مع الموظفين ويتابعون الأنشطة والمهام ثم يستمعون إليهم كل أسبوع، وكل ما يفعله هؤلاء الحالمون هو أن يعطوا تصورات وأفكارًا استثنائية وحالمة عن شكل الشركة والمنتج والتعامل مع الزبائن، ويبدو أن الحالمين هؤلاء قد أضافوا للشركات أفكارًا رائعة غيّرت شكل الصناعات بالكامل وطورت مفهوم الشركات عن المنتجات التقليدية والشكل العادي للأشياء، وقد تم اقتطاع ميزانية رواتب هؤلاء الحالمين من ميزانية تطوير الأعمال بالشركات، وأصبحت فيما بعد وظيفة أساسية في كل شركة وهي تطوير الأعمال، غير أن الأمر عندما انتقل للشركات الصغيرة والدول النامية تعاملوا مع تطوير الأعمال على أنه نوع من نشاط المبيعات والتسويق التقليدي فانتهت وظيفة الحالمين الحقيقية.. الحالم هو مفكر يركز رؤيته فيما يخص الأعمال والأموال والمنتجات.. وفي الأديان يوجد المتأملون، أهل التصوف والخلوة والتأمل، نُسّاك المساجد وعباد المعابد ورهبان الأديرة وكهنة الأديان القديمة، وكما كانوا يفعلون الأمور اليومية المعتادة كان جزء من عبادتهم في التأمل والتفكير والبحث، والذين انحرفوا منهم كانوا يصرفون تفكيرهم للمؤامرات وجمع الأموال والقرابين..

وفي الفن يوجد الصانع والحرفي الذي يصنع بيديه ويصمم بحرفته ومهارته كما يوجد المفكر المبدع الذي يتجاوز الحرفة ويحلق في الرؤية فيصنع إبداعًا لم يأتِ من قبل.. في الحكومات القديمة كان يوجد أهل الفكر الذين هم أهل

السياسة وأصحاب الرؤى، وقد كانت حكومات العالم القديم تعج بالساسة (المفكرين والفلاسفة) وكانوا يتدخلون في وضع خطط الحروب وتغيير شكل الدولة وصياغة القوانين، حتى إن بعض الحكام والأمراء كانوا فلاسفة..

الفلسفة إذن هي نوع من البحث والتأمل، يمكن اعتبارها بحث عن الحكمة أو عن الجمال أو عن الحق، وفي الواقع أحب اعتبار الفلسفة هي فعل البحث ذاته، لا يهم عن ماذا نبحث بالتحديد، المهم أن عملية البحث ذاتها ستقودنا إلى إيجاد المعنى الشخصي أو الفلسفة الذاتية، واكتشاف ما يؤثر بنا ويمنحنا معنى للحياة، البحث عن "معنى" لكل ما هو حولنا وكل ما نقوم به، ربما يكون ذلك المعنى هو ضالة التفلسف.

أنا إذن باحث، ومفكر وفي رحلتي تلك للبحث والتأمل ربما يمكنك اعتباري فيلسوفًا لأني توصلت إلى بعض المعاني وأسعى للوصول إلى باقي المعاني.

ليس المهم المسمى، بقدر ما يهم الفعل والأثر..

كانت القهوة تبرد بسرعة قبل أن آخذ عدة رشفات، بينما هي شربت قهوتها كاملة، وخفت أن يكون كلامي محبطًا أو مملًّا فسألتها عن سبب سكوتها.

لكن السكوت طال، وأصبح الموقف كله مربكًا، وكان عليّ أن أحترم صمتها وأرجع لمقعدي لعل الطفل قد تبخر أو حلت به أي مفاجأة تدفعه للرحيل.

ذكرني سكوتها بابنتي التي كانت في مثل سنها، قبل رحيل ابنتي كانت بدأت تعتاد الصمت، وكانت جميلة، جميلة من الداخل وجميلة من الخارج، وكنت أشعر أني ابنها رغم كونها ابنتي، للحنان طاقة أبوة، عندما تقابل شخصًا حنونًا تشعر أنك جزء منه، وكأنه كل أهلك، وهي كانت حنونة وحالمة وتحب الاستماع لي، في كل مرة كنت أحكي لها نفس الكلام المكرر وتستمع لي بشغف وكأنها تريد أن تقول لي أنا هنا من أجلك، أنا كل جمهورك.

أفرغت محتويات الغليون في المرمدة المعدنية، نظرت للفتاة نظرة أخيرة، كانت في سن ابنتي على الأرجح وكانت حزينة وشاردة، وكان يجب عليّ الرحيل قبل التورط في البكاء!

***

كيف يتحرك العالم؟

سألتني الفتاة بشكل مباغت "كيف يتحرك العالم؟" كنت أستعد للرحيل من عربة القهوة في القطار وأرجع إلى مقعدي.

جلست مرة أخرى بجوارها.. وكأنني كنت أنتظرها لتسألني كي أجلس وأنا أضغط بيدي على ركبتي، لقد أهلكني الروماتيزم، كنت أفضل الموت وأنا في كامل صحتي، لكن علينا التصالح مع فكرة أن ليس كل ما نتمناه سنحصل عليه..

قد يصبح من الأنسب التكيف مع فكرة أننا سنتعلق بأشخاص وأشياء ثم تمر الأيام ونفقدهم لأسباب متعددة مفهومة أو غير مفهومة، لكن ذلك سيحدث حتمًا ولا مفر.. وكما سنفقد أشخاصًا سنفقد أيضًا أمنيات.

سألتها: "هل تقصدين كيف يعمل العالم؟" وسكتت للحظات، كانت تبدو شاردة ووجدت أنه لا مفر من الانتظار فنظرت إلى عامل البوفيه وابتسم فورًا وقال: "قهوة تركي أقل من المظبوط" وابتسمت له شاكرًا.

ثم تحدثت الفتاة أخيرًا وقالت: ربما هذا ما أقصده كيف يعمل ويفكر العالم؟

سكبت نفسي في كوب القهوة ورحت أحكي، يمكن سرد كيفية عمل الكون من عدد لا نهائي من وجهات النظر، سرد طريقة عمل الكون من منظور الفلك وحركة الكواكب والنجوم وكيفية تشكل الأجرام السماوية والسديم الكوني، هل تعرفين النظرية التي تؤمن بوجود كون آخر مماثل للذي نعيش فيه،

كون يشبهنا وعليه أشخاص يشبهونا ويتصرفون وفقًا لعالمهم؟

هل تعرفين أن النجوم التي نراها في السماء لم تعد موجودة، أو في الأغلب لم تعد موجودة، لكن احترقت وانتهت وانطفأت، احترقت منذ آلاف السنين لكننا نرى ماضي تلك النجوم! أمر مربك جدًّا ما يمكن أن يفعله بنا التفكر في الزمن، كما أن هناك نظريات غريبة عن الأرض المسطحة الشاسعة التي تدور حولها النجوم والكواكب والشمس، ورغم غرابة تلك الافتراضات وتعارضها مع العلم والعقل إلا أن لها مريدين وأتباعًا.. وهناك نظريات عن الانفجار الكبير الذي حدث قبل مليارات الأعوام فنتج عنه الصورة المعروفة عن الكون.. يمكن التحدث عن العالم الذي نعيشه من وجهة نظر الفضاء.

ذات مرة منحتني الحياة فرصة لقاء عالم فضاء ساهم في عملية المسبار روزيتا وتحدثت معه عن أهمية علوم الفضاء، كنت أشعر حينها أن كل تلك الاستثمارات الضخمة في علوم الفضاء تضيع في محاولة اكتشاف المجهول، وأثناء الحديث اكتشفت أن العلماء عندما أرادوا الخروج للفضاء احتاجوا للعديد من الاكتشافات لتأمين الرحلة، منها شبكات الاتصالات اللاسلكية الهائلة والتي كانت بداية الطريق فيما بعد لثورة الاتصالات المهولة التي نعيش فيها الآن.. النظرة القاصرة تجعلك تصنّف العلم؛ هذا علم ضروري وهذا علم غير ضروري، لكن تطبيقات العلوم لا حصر لها، وكل اكتشاف جديد في أي مجال يفتح بابًا للبشرية في مجالات أوسع.

نظرت إليها وكانت شاردة، سألتها "أنت معي؟" وابتسمت

خجلًا ثم اعتدلت في جلستها وأخبرتني أنها ستكون معي بكل تركيزها من الآن، وطلبت كوب عصير ليمون ثم نظرت إليَّ في طفولة وانتظار.

أخبرتها أني لن أطيل عليها، لكن كما كان تفسير الكون محتملًا لو فكرنا في الأمر من خلال الفلك فيمكن أيضًا تفسيره من منظور نشأة المجتمعات والقبائل والإمبراطوريات ثم شكل العالم الحالي، أو من منظور علم الأعصاب وتطور الچينوم البشري، أو من منظور تاريخ الأمراض والأوبئة، ربما من منظور علم النفس التطوري وربما من منظور تاريخ الفلسفة والعلوم أو تاريخ اللغة، ولكن ماذا عن تاريخ الأديان؟ وماذا عن تاريخ الفن والأدب؟!

أمسكت البنت برأسها، وقد احمرّ وجهها وابتسمت وقالت لي: هل تعرف، عندي عشرون سنة وبضعة أشهر، تحدث معي من هذا المنطلق، لا تحملني كل تلك المعلومات والتخيلات وتترك رأسي يدور، هل يمكن اختيار طريقة واحدة لها قصة واضحة يمكن البدء منها؟

العالم الذي نعيش فيه غير محدود من حيث التاريخ والنشأة والتطور ولا يمكن حصر رؤية واحدة شاملة للكون؛ لأن مع مرور الزمن تتنوع الاكتشافات وتتغير نظرتنا للكون مع كل اكتشاف جديد.

لو كنت سأختار طريقة أبدأ منها سرد العالم ربما أختار منظور تطور الاقتصاد منذ عهد الإنسان الأول إلى الإنسان الحالي.

سألتني الفتاة في فضول: ماذا تقصد بسرد تاريخ العالم من منظور الاقتصاد؟ كنت أريد أن أعرف كيف يدار العالم الذي نعيش فيه، لماذا يحارب الناس بعضهم؟! ولماذا هناك بلاد فقيرة وهناك بلاد غنية؟! ولماذا لكل بلد تأشيرة دخول ولا يمكننا السفر إلى أي مكان في أي وقت؟! في رأسي ألف سؤال..

أنت تسألين عن أمور عدة مختلفة، تحتاج ألف ساعة لنحكيها جميعًا.

لقد وجد الإنسان نفسه في العراء وكان عليه أن يجمع الثمار ويصطاد الحيوانات والسمك والطيور لكي يجد ما يأكله، ولكن عندما بدأ الإنسان الأول أو رجل الكهف كما يمكن تسميته في تكوين عائلة كبيرة فقد وجد أن مقدار ما يجمعه من ثمار وما يصطاده لا يكفي لسد جوع العائلة التي بدأ عدد أفرادها في الزيادة، لقد كان رجل الكهف يجمع ما يكفيه من الطعام ويبذل في المقابل جهدًا مساويًا لما يسد جوعه، ثم بدأ يجمع ما يكفيه هو وامرأته التي جلست تنتظر في الكهف، غير أن حاجة الأطفال للطعام فيما بعد دفعت المرأة للخروج لجمع الثمار مع زوجها في أغلب الوقت، ولما زاد الأبناء وكبرت العائلة أصبح على الرجل والأم جمع المزيد من الثمر، وقد لاحظ رجل الكهف أن بذور تلك النباتات التي يجمعونها تنبت من جديد في أماكن جديدة، ولا يوجد قول فصل في تاريخ اكتشاف الزراعة.. البعض يرى أنها بدأت بالصدفة، والبعض الآخر يرى أن الإنسان الأول جرب زرع البذور عندما

وجدها تنبت من جديد فاكتشف الزراعة.. نحن الآن نقف أمام تحول هائل في حياة رجل الكهف.. لقد تغير كل شيء، وأصبح الإنسان يزرع ما يأكل بعد أن كان يجمع الثمار المتاحة فقط، في لحظة بدأ يتحكم في كمية المحصول وبدأ يزرع لأول مرة في تاريخ البشرية ما يفيض عن حاجته.. وهنا توقف الإنسان للمرة الأولى أمام فكرة الفائض!

في السابق كان الإنسان يجمع القدر الذي يأكله، أما الآن ومع الزراعة أصبح يوجد فائض أكبر بكثير مما يمكن أكله وبهذا نبدأ عصرًا جديدًا في تاريخ البشرية يتحول فيه هذا الفائض إلى مفهوم الثروة، فكلما زاد الفائض زادت قيمة ما تمتلك؛ وبالتالي زادت قدرتك على تبادل ذلك الفائض بأشياء أخرى.. فائض زراعي يتم مقايضته مع بهائم وماعز ودواجن وملابس وربما بيوت وأدوات وغيرها.. لقد صنع ذلك الفائض مفهومًا يسمى "القيمة"، وبدأت الأشياء تكتسب قيمة اقتصادية؛ لأنها أصبحت قابلة للمقايضة(36).. ثم أكمل الإنسان الأول رحلته في الزراعة فزادت المحاصيل واحتاج إلى من يساعده في جمع المحصول والزراعة؛ فزادت أعداد الأسر وزادت الحاجة إلى الأبناء وزاد أعداد العائلات واجتمع الأقارب وشكلوا قبائل وجماعات.. وبهذا كانت الزراعة هي السبب الأساسي في تشكل المجتمعات البشرية الأولى، لكنها أيضًا تسببت في تمايز القبائل عن بعضها بسبب فكرة الثروة الناتجة عن الفائض، وتسببت في وجود أول شكل للطبقات الاجتماعية، حيث أصبح ملاك الأراضي الزراعية أصحاب ثروات ضخمة.

حتى ذلك الوقت لا يوجد شكل فعلي للنقود، لكن كان هناك أصحاب مصالح ونفوذ وطبقات تشكلت مع توسع الزراعة، لما زادت المحاصيل وأصبح من الضروري حمايتها من السرقات وكانت الحاجة إلى أفراد يقومون بالحماية ولا يشاركون في أعمال الزراعة ظهرت طبقة الجنود لحماية المزارع والمحاصيل، كما كان هناك طبقة من كهنة المعابد لا يعملون في الزراعة، وبعض أهل الحرف الذين اعتمدوا على المقايضة، وبهذا تبدأ الصورة الأولى لمجتمع به طبقة جنود وطبقة دينية وطبقة أصحاب أراضٍ وثروة وقيادات للقبائل وطبقة عمال وأهل حرف ومزارعين.. سيدور الزمان وتلعب المصالح والمؤامرات والأفكار لعبتها وبتفاعل البشر مع البشر تنشأ الصورة الأولى للحضارات القديمة.

هكذا إذن كانت الزراعة هي السبب الأول في أول نظام اقتصادي، وهذا النظام الاقتصادي المعتمد على مفهوم الفائض والثروة كان السبب الأساسي في أول شكل سياسي للدولة، ومن هنا نستطيع تتبع ماذا فعل الاقتصاد بالعالم.

اقترب عامل البوفيه، وأدار بكرة حتى بدأ ستار النافذة التي أمامنا يرتفع، ودخلت أشعة الشمس وانكسر ضوؤها على زجاجة المياه أمامي.. والطريق الممتد الذي ظهر أمامنا من النافذة كان يظهر فيه أرض زراعية متسعة.. وعواميد تحمل أسلاكًا كهربائية بمحاذاة خط القطار، أمسكت زجاجة المياه ورحت ألفها حول نفسها، وأشعة الشمس تتكسر مع الزجاجة وتصنع أشكالًا وظلالًا على الطاولة.. لحظات مرة وأنا

شارد قبل أن أنتبه على صوتها وهي تسألني: "أين سافرت بخيالك؟" ابتسمت وقلت لها: سافرت إلى حيث الأراضي الزراعية الشاسعة، هل تعرفين ماذا حدث فيما بعد؟

- قل لي.

سوف ينشأ بعد ذلك طبقة من الإقطاعيين الذين يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي، ويتكون لديهم فائض هائل، ويتحول شكل الاقتصاد من الاقتصاد الزراعي العادي إلى الاقتصاد الإقطاعي الذي يسيطر فيه طبقة صغيرة على كل الثروة؛ وبهذا يتشكل طبقات أكثر وأكثر تعمل في خدمة الأغنياء.

ومن التاريخ يمكن رؤية أن الثروة عادة تحتاج لمن يحميها، لذلك عبر التاريخ كله كان سرعان ما يتزاوج المال والسلطة، والأمر لا يتوقف فقط عند مفهوم حماية الثروات ولكن في لحظة معينة من عمر البشرية أدرك أهل السلطة أن أحلامهم السياسية وتطلعات توسعة الإمبراطوريات وفرض النفوذ على رقعة أكبر من الأرض، كل تلك الأفكار لا يمكن تطبيقها بدون ثروات تنفق على تنفيذ تلك الأحلام، وبهذا أصبح التزاوج بين السلطة والثروة يمثل ما يشبه البقاء لكليهما..

توقفت عن الكلام للحظات، أردت أن أعرف هل كلامي مفهوم أم أن الفتاة كانت تنتظر شيئًا آخر، ربما فقدت الاهتمام بما أقول.

سألتها هل هذا ما كنتِ تسألين عنه؟

وأجابتني سريعًا: "كنت أقصد أمورًا كثيرة أخرى، مثلًا لماذا عندما نتعلق بأشخاص تكون أقرب الاحتمالات هي الفقد؟ ولماذا نحاسب على أمور مكتوب علينا حدوثها؟ ما هي حقيقة خلق الكون؟ وهل يتحكم بنا الماسونيون حقًّا؟! وكيف يمكننا تحقيق أحلامنا؟ وكيف أعرف ماذا أريد في الحياة؟».

أمور كثيرة مرتبكة أريد معرفتها وترتيبها، وأريد أيضًا معرفة ماذا حدث بعد سيطرة الإقطاعيين على الثروات؟

كان الوقت مثاليًّا للنظر نحو نافذة القطار وأخذ نفس عميق من البايب، نفس جديد يأخذ من عمري دقيقة أخرى، قلت لها وأنا أشعل الغليون، قرأت في أحد الكتب أن كل نفس يدخنه الإنسان ينقص من حياته دقيقة.. وقالت لي: لقد أخبرتني ذلك من قبل.

- هل أخبرتك فعلًا؟

- حصل.

- أصبحت أنسى كثيرًا هذه الأيام، منذ رحلت عني زوجتي وابنتي وبدأت أنسى، كانتا كل الأشياء الجميلة في حياتي، من بعدهما أصبح كل شيء بدون طعم، هل قلت لك فعلًا عن كل دقيقة تنقص من أعمارنا عندما ندخن؟!

نعم قلت، ولكن لم تحكِ شيئًا عن ابنتك وزوجتك، هل تحب أن تحكي؟

سألت نفسي هل عندما ندخن ينقص من أعمارنا دقيقة حرفيًّا، أم المقصود دقيقة سوف نعيشها في ألم محتمل من

مخاطر التدخين، على كل حال فإن كل المدخنين يدركون آثام التدخين جيدًا لكن الشجعان وحدهم من يتوقفون عن تلك العادة.. كنت أتوه في الشرود الجميل، لكل منا حالة من الشرود يجد فيها نفسه، لكنها سألتني مرة أخرى: هل تريد أن تحكي عنهما؟

من؟

زوجتك وابنتك.

ابنتي اسمها ليلى، في أول العشرينات، كانت جميلة وتحب الاستماع لي، لم تكن تحب القهوة لكنها كانت تتشاركها معي لأني أحبها، عيناها خضراء كلون الأشجار والنباتات وقلبها أخضر من عينيها.. أحيانًا أسأل نفسي هل كان لي ابنة فعلًا، هل تعرفين أن غدر الذكريات أشد قسوة من الموت، أن تخونك ذاكرتك فتنسى تفاصيل حياتك مع من تحبهم؟!

ولكن أعتقد أنه أحيانًا يكون النسيان نعمة، عندما ننسى الأشياء الحزينة.

حتى الأشياء الحزينة يهمني تذكرها؛ لأنها مرت ورحلت وأحب أن أشعر بالامتنان أنها لم تستمر.

ثم سكتنا نحن الاثنان للحظة قبل أن أخرج عود الثقاب الطويل لأشعل البايب من جديد، ترددت للحظات، بعدها رحت أحكي لها ماذا حدث بعد سيطرة الإقطاعيين على المال، وكأني أردت أن أهرب من الذكريات.. هل تغدر بنا الذكريات أم نحن من نهجرها حتى تتلاشى؟!

لسنوات طويلة سيظل الإقطاعيون يوسعون من امتلاكهم للأرض وبالتالي للثروات، سيتحول كل إقطاعي إلى إمبراطور محتمل، ويجب معرفة قاعدة عامة في عرف المال أنه في لحظة معينة يتحول ما يمتلكه الشخص إلى مجرد رقم يسعى إلى زيادته ولا يصبح لامتلاك المال معنى حقيقي، أعني أنه إذا وصل بالشخص الثراء الكبير لدرجة أنه امتلك كل ما يحلم به، قصور وبيوت وسيارات وأراضٍ وأموال تكفيه للإنفاق طوال حياته فإن كل ما يزيد عن ذلك يصبح غير مستغل، ولا قيمة له سوى إحراز رقم جديد، أن يتحول المائة مليار التي يمتلكها إلى مائتين، وهذا الرقم الجديد لن يغير من طبيعة حياته ونفقاته في شيء، ولكن إحراز الرقم الجديد يتماشى مع الطموح والتسابق مع نادي أغنياء الكون، وقد يمنحه المزيد من أمرين، النفوذ وأحيانًا كثرة الصراعات.

إن حياة الأثرياء بقدر ما هي مرفهة بقدر ما هي مملة، تخيل أن تكون لديك قدرة على فعل كل ما تريد في أي وقت تريد، بعد فترة ستجد أن كل الأمور تمت وأصبح تكرارها مملًّا، في الوقت نفسه فإن حياة الفقراء عاجزة وحزينة وبائسة.. الذين يستمتعون بالحياة هم الذين في المنتصف، لأن هناك شيئًا يمتلكونه ولا يمتلكه غيرهم، إنه الطموح، ذلك الدافع السحري الذي يجعلهم يسعون لتحقيق الأحلام ويبذلون الأيام والجهد في سبيل ذلك ويكون لديهم فرصة حقيقية للوصول، ولذة عند الوصول، ذلك الطموح والنجاح هو إحساس مدهش لا يمتلكه غيرهم.

كان رجل كبير في السن وزوجته قد جاءوا إلى طاولة البوفيه في القطار وجلسوا ليشربوا شايًا، وتذكرت أنني رأيتهم في محطة القطار وكان معهم حقيبة سفر عملاقة تكفي لإخفاء جثة شخص بالغ فيها، طلبا شايًا وجلسا صامتين، لاحظت من ساعة الرجل ماركة رولكس أنه شخص ثري، كانت ملابسه تكشف ثراءه، جاكت من الجوخ الأصلي ورابطة عنك من نسيج قطني مع خيط حريري لامع وساعة يد رولكس يتخطى ثمنها عدة آلاف دولار وزوجته تحمل حقيبة جوتشي..

سألتني الفتاة لماذا سكتُّ فجأة؟ اقتربت منها وحاولت أن أهمس لها، قلت لها: هل ترين حقيبة السيدة وساعة الرجل؟! يكفيان لشراء ملابس أنيقة لكل ركاب القطار.. وأصدرت الفتاة ضحكة ساخرة، فانتبه لنا كل من بالعربة، وابتسم لي الرجل وزوجته وأومأوا برأسهم لنا.. أصاب الخجل الفتاة فراحت تضغط على أصابعها واحمرّ وجهها، وحاولت الفتاة تغيير الموقف بعد أن ضحكت بصوت ملفت، فهمست لي متسائلة: ما الذي يدفع شخصين ثريين أن يستقلا قطارًا بدلًا من سيارة فارهة مع سائق محترف؟!

قلت لها: لا أحب تتبع الناس والتلصص عليهم، ما لفت انتباهي هو صمتهم المريب دون أن ينطقا بكلمة، طلبا شايًا وصمتا وكأنهم لا يعرفان بعضهما، فانتبهت لهما، ربما أنهما يخفيان شيئًا مريبًا، هل تكون جثة فعلًا في الحقيبة؟ واستقلا القطار حتى يسهل أن تضيع الحقيبة ضمن حقائب الركاب؟!

قالت الفتاة لا أريد أن أخاف، لا تزرع في رأسي فكرة وجود

جثة في أحد حقائب الركاب بالقطار، فلنعد للإقطاعيين، ماذا حدث؟

واقع ما حدث هو محاولة الإقطاعيين لفعل شيء جديد بعد تراكم الثروات وبهذا تبدأ مرحلة جديدة هي دخول الإقطاعيين إلى عالم التجارة التي مارسها التجار البسطاء في البداية، وهكذا يمكننا مشاهدة تحول كبير في مفهوم السوق والتجارة وتمويل رحلات التجارة بين الشرق والغرب.. سيبدأ العالم مرحلة جديدة يتعرف فيها كل مكان من العالم على ما يمتلكه المكان البعيد عنه، وتتميز فيها كل دولة/ إمبراطورية بمنتجات مختلفة تميزها، وكما تطمع الإمبراطوريات في زيادة رقعتها من الأرض، والتي تعني زيادة الإنتاج والسيطرة والنفوذ، سينشأ سبب جديد للطمع وهو شهوة تملك ما ليس لديها بالإضافة لوقف الخطر المحتمل من الجوار.

لكي نتخيل شكل العالم في تلك اللحظة فعلينا أن نسترجع في الذاكرة حياة رجل الكهف، إن الميراث الذي حصل عليه الإنسان في چيناته البشرية من أجداده يخبره بضرورة الخوف، وكذلك يخبره بأنه لو لم يسيطر على الكهوف المجاورة فإن رجلًا آخر سيأتي ويسيطر على ذلك الكهف ويصنع قبيلة كبيرة ثم يحاربه وينتصر عليه، وبالتالي كانت حيلة رجل الكهف الأول أن يسبق أي شخص آخر ويستحوذ على كل الكهوف وحده.

ستظل عقيدة رجل الكهف تلك تتحكم في الإنسان عبر الأجيال حتى نصل إلى لحظة سحرية تغير فيها كل شيء!

لقد اكتشف العالم السكر، بعد اعتياد العالم استخدام عسل النحل الطبيعي والذي لم يكن متوفرًا بشكل كبير يكفي احتياج الجميع، كما كان مرتفع السعر ولا يمكن توفيره طوال الوقت إلا في طبقات اجتماعية مقتدرة، وبعد اعتياد العالم على طعم المشروبات بدون أي سكريات فجأة ظهر ذلك السكر في شرق العالم، كما شاع في بعض الكتب ظهور قصب السكر بدأ في شمال الهند منذ آلاف السنين، ثم بدأ في الانتقال تدريجيًّا للمناطق المحيطة، في بداية القرن السادس عشر كان المسلمون نقلوا زراعة قصب السكر إلى مصر والشام وأضافوا تحسينات نوعية في طرق الزراعة واستخلاص السكر، ومع انتشار حركة التجارة عالميًّا كانت أوربا تتشوق للمزيد من السكر، وهو الأمر الذي أدى إلى انتشار مستعمرات كاملة هدفها الأول هو إمداد أوربا بالسكر.

لقد تحول السكر في أقل من مائة عام لأهم منتج يتم تداوله عالميًّا، حتى شاع رؤية حاشية الملك في فرنسا بأسنان متساقطة وشيوع تسوس الأسنان بسبب إدمان السكر.

البرتغاليون فيما بعد سيقومون باحتلال البرازيل ويحولونها إلى مركز عالمي لزراعة قصب السكر، وبريطانيا ستدخل مرحلة من بناء مستعمرات شاسعة في شمال القارة الأمريكية لزراعة قصب السكر، وستحتل تجارة السكر ثلث التجارة العالمية في الوقت الذي يستعد فيه العالم لمرحلة جديدة!

ما يمكن قوله هنا في هذا الخصوص، أن العالم عرف السكر من خلال التجارة، والمقولة الشهيرة التي تفترض أن الإسلام

أو الأديان انتشرت عن طريق التجارة، تبدو من بعيد مقولة غير منطقية، لكن عالم المال والأعمال في العصر الحالي يثبت قدرة التجارة على نقل الثقافة والهوية وربما الاحتلال المعنوي للشعوب، نحن نستطيع أن نلمس أثر تطبيق عالمي واحد من تطبيقات الهاتف علينا وكيف يفرض ثقافة بعينها أو يقلل المسافات الثقافية بين الشعوب، وتطبيقات الهواتف كمثال ما هي إلا شركات تجارية، الفارق في التشبيه أن في الماضي كان الأشخاص ينتقلون بأنفسهم لمقابلة الزبائن في البلاد الأخرى، والآن نقابلهم عبر الإنترنت.

الشكل الذي تحول إليه العالم من احتراف التجارة وعالميتها أدى إلى انتقال السكر، وشيوع استخدام السكر أدى إلى زيادة الثروة من الاتجار فيه، وزيادة الثروات تعني بالضرورة تورط أصحاب المصالح وبالتالي تورط الإمبراطوريات والدول في حماية المصالح.. والتاريخ يرصد لنا حروبًا وثورات حدثت بسبب تجارة السكر.

لقد غير اكتشاف السكر شكل العالم تمامًا، كما فعل اكتشاف وتطويع الحديد واكتشاف طاقة البخار، واختراع البارود، ويمكن وضع خط فاصل في التاريخ قبل هذه الاكتشافات وبعدها.

ما حدث بعد ذلك كان مبهرًا؛ لأن الدول التي تقاتلت من أجل التجارة وأسست أساطيل وجيوشًا لحماية مصالحها استيقظت من النوم فجأة على ثورة في عالم صناعة الماكينات البخارية!

في تلك الفترة كنا على أعتاب الثورة الصناعية، موعد

جديد مع تغيير شكل العالم بلا عودة، فكما غيّر السكر شكل التجارة والعالم وبسبب السكر شاعت تجارة العبيد وتسارعت الدول الكبرى في جلب المزيد من العبيد للعمل في مزارع قصب السكر، وأصبحت الثروة تساوي المزيد من العبودية، فإن الثورة الصناعية أوشكت على تحويل العالم كله إلى عبيد مع تغيير شكل العبودية بدلًا من سلبك الحرية رغمًا عنك، فكانت الحرية في مقابل المال!

مع تسارع الماكينة الصناعية في إنتاج ملايين المنتجات يوميًّا تعاظمت الثروة لأول مرة بطريقة جديدة، ليست الزراعة وحدها كما العهد السابق، لقد انطوى عهد الزراعة وبدأ عهد جديد يعتمد على تصنيع منتجات أكثر، وكلما زادت المنتجات زادت الثروة، وكلما زادت قدرة الماكينات تم التخلي عن العمال في المصانع وزادت الحاجة للاستهلاك!

ما حدث أن نتيجة التقدم والاختراعات فقد تم تطوير أدوات المعامل وبالتالي تم تطوير أدوية مقاومة للأمراض المنتشرة، وتم اكتشاف أسباب الكثير من الأمراض وتصنيع الدواء بكميات تكفي الجميع ولأول مرة يرتفع متوسط الأعمار وتقل عدد الوفيات ويزداد عدد المواليد؛ وبهذا يتضاعف عدد سكان الأرض في السنوات التالية للثورة الصناعية بشكل يتجاوز كل ما حدث من بداية عمر الأرض وحتى القرن الثامن عشر!

لقد أراد رجل الكهف أن يعمّر الكهوف المجاورة ليضمن البقاء، ولكن اللعبة خرجت من يده وأصبح رجال الكهف أكثر مما يتحمل الكوكب، لدرجة حدوث المجاعات وتهديد الحياة

باحتمالية نقص الموارد في المستقبل!

وكلما طور الإنسان أدوات وطرقًا للثروة والسيطرة وصنع الحيل والألاعيب، يمر الوقت وينقلب السحر على الساحر ويفاجأ الإنسان بلعبته تنفجر في وجهه وتتحول إلى أزمة يسعى إلى حلها.

مرت الحياة على الأرض بتحولات شكلت دول وإمبراطوريات، وتسببت في حروب وغيرت شكل التاريخ من صيد وجمع بذور إلى ثورة زراعية ثم اقتصاد تجاري ثم ثورة صناعية والآن يعيش الإنسان آخر مراحل ثورة الاتصالات، يمكن اعتبار الإنترنت مماثلًا لفكرة اكتشاف السكر، ما فعله الإنترنت والحاسوب في العالم يشبه ما حدث بعد اكتشاف السكر والثورة الصناعية، ولكن هناك لحظة سحرية أخرى لم نذكرها، وهي نشأة الشركات العملاقة.. حكاية هذه الشركات لا تقل خطورة عن حكاية نشأة كل ما سبق، الأمر بدأ بشركة تريد التوسع، وتحول إلى شركات تحتل أوطانًا!

لقد اتفقنا أن كلما زادت الثروة كلما زادت طرق العبودية المقنعة، لقد انتهى العصر الذي يأتي فيه محتل ليفرض وجوده بالقوة ويحتل موارد منطقة ويستعبد أهلها؛ وذلك لأن التجربة أثبتت فشل تلك الطريقة بسبب النزعة الفطرية للحرية، فالشعوب المحتلة والأشخاص المستعبدون لديهم نزعة فطرية للتحرر، ذلك الصوت الذي ينبع من أعماق قلوبهم ويهتف فيهم بالحرية.

ولكن إذا كانت الدولة الاستعمارية يمكن أن ترحل وتترك

من ينوب عنها بصورة أو أخرى، أو ترحل وترسل لك شركة عالمية، تلك الشركة تقول لك في مناسباتك الدينية كل عام وأنت بخير، وتدفع لك ولأصدقائك الرواتب، وتبني مدارس في مدينتك فسوف ترحب بوجود تلك الشركة ولا شك، حتى ولو كانت في النهاية ستستعبدك بنظام العمل وتسحب موارد وطنك ماديًّا للخارج.. ما رأيك في هذا الاحتلال الجديد؟! احتلال يهنئك في مناسباتك الدينية ويحتفل معك بأعيادك الوطنية، ويتسابق مشاهير بلدك للتعاقد معه على حملات إعلانية، احتلال يرتدي رابطة عنق أنيقة ويضع برفانًا بدلًا من الملابس العسكرية وروائح البارود.. احتلال يمنحك الدواء بعد أن سرب لك الڤيروس ولم يمنحك المعرفة لكي تنجو.

في لحظة فارقة من عمر الكون نشأت البورصة، وفي لحظة فارقة أخرى طُرحت إحدى الشركات في البورصة، هنا كان العالم على موعد مع تحول جديد، لكن تحولت الشركات من مرحلة أنها من يقوم ببيع المنتجات إلى أنها نفسها تحولت لمنتج لو جاز التعبير، وهنا أصبحت الشركات تختزن القيمة تمامًا مثل النقود والذهب، لذلك ربما في المستقبل تكون الشركات هي نقود العصر الجديد، الشركات بما تملك من بيانات عملاء وما تملك من قاعدة زبائن لديهم الولاء وما تملك من معلومات..

توقفت عن الكلام لأخذ شربة ماء، ولاحظت أن الرجل الثري وزوجته يستمعان إلى حديثي، بدا على الرجل الاهتمام، وقال في عبارة مقتضبة جدًّا: أتفق معك في أغلب ما قلته، ثم

نهض، أمسك يد زوجته وتحركا.. كان تصرفًا مريبًا وغريبًا، قالت لي البنت: يبدو شخصًا انطوائيًّا، وجددت سؤالها لماذا يستقل أحد الأثرياء القطار؟!

حاولت إخبارها بوجهة نظر لكن اكتشفت أني لم أكن أحد الأثرياء يومًا ما، كنت دائمًا في المنتصف الجميل الذي يناسبني تمامًا ولا أحب عجز الفقر ولا لهث وصراع الثراء.. لكن يبدو من تصرفات الرجل أنه كان ثريًّا، وربما خسر ممتلكاته لكنه لا زال يحتفظ بما تبقى من مظاهر طبقة اجتماعية كان ينتمي لها يومًا ما.

سألت الفتاة العشرينية عن اسمها، كنا نتحدث منذ فترة ولا أعرفها ولا تعرفني.. قالت اسمي ليلى، ثم أتبعت حديثها بسؤال ساخر، هل تحدثنا عن الفلسفة والحياة والموت والعالم والإقطاعيين ولم نعرف حتى أسماءنا؟!

عندما نرتاح لشخص في الأغلب لا يهم اسمه أو عمله، نحن نرتاح للذين نشعر معهم بالطمأنينة ويدخلون حياتنا برفق مهما كانت أسماؤهم، هل تعرفين كان لي ابنة اسمها ليلى، بنفس اسمك.

لقد أخبرتني ذلك منذ دقائق، هل نسيت حقًّا؟ قالت ذلك ولمحت دمعة تتشكل في عينيها، وقبل أن تسقط دمعتها مسحت عينيها بيديها.. ثم حاولت الابتسام وسألتني:

وما اسمك؟

يمكنك أن تناديني بجدو، أنا في مقام جدك.

ممم، رجل غامض يخفي اسمه عن الغرباء، قالت عبارتها تلك وضحكت ثم أكملت حديثها، بالرغم من صعوبة ما حكيته عن الاقتصاد على عقلي الصغير لكني أريد تخيل ما سيحدث في الفترة القادمة.

العالم الآن يتهيأ لمرحلة جديدة، لقد صنع الإنسان الروبوت أو الإنسان الآلي، وبدأ مفهوم الثروة يتغير عالميًّا، فالأموال نفسها التي نمتلكها لم تعد لها قيمة كما في السابق.. كانت النقود في السابق تعادل قيمتها بالذهب، ثم تغير الوضع بعد الحرب العالمية الثانية بفترة وأصبح مفهوم القيمة والفائض مرتبكًا منذ تحول الدولار لمخزن للقيمة بدلًا من الذهب(35).

من هنا تغيرت نظرة أهل الثروة للمال، العالم الآن مهموم بالموارد والسيطرة والبيانات وتلك البيانات والمعلومات تمتلكها شركات كبيرة وصغيرة، لذلك فقيمة تلك الشركات نفسها هي ما يمثل فكرة الفائض في الاقتصاد الجديد..

في المستقبل قد تختفي الصورة النمطية للنقود ويتحول الناس إلى مجرد أرصدة تعمل بنظام النقاط، تدفع من نقاطك وتعمل مقابل نقاط تضاف إلى حسابك، وتحصل على مقابل ما تقدمه بتحويل النقاط، وهذا سيسهل على الشركات وأصحاب المصالح والنفوذ تتبع حياة الأشخاص في كل لحظة، سيتحول البشر إلى لوحة إعلانات وعبيد عند السيستم!

الخوف كله من اللحظة التي يمنح الإنسان فيها الروبوت القدرة على البرمجة، لو اكتشف العقل الإلكتروني طريقة تعديل الكود البرمجي الخاص به وفهم آليته، في تلك اللحظة

قد يتدخل الروبوت في برمجة نفسه وبعدها يتغير شكل العالم الذي نعرفه للأبد مرة أخرى!

قلت لليلى: هل تعرفين أن أصحاب الثراء هم أكثر الناس حرصًا على المال، لا أؤمن بقانون الجذب بالمعنى الحرفي له، أؤمن أكثر بقانون السعي والنتيجة.. لكن بطريقة ما تهبط الأموال على الأغنياء كما هبط الطفل السمين في كرسي القطار، أو ربما أن الثراء يجذب المزيد من الثراء..

- هل تشربين قهوة؟

شربنا الكثير من القهوة اليوم.. ثم ابتسمت ساخرة وقالت كفاية قهوة يا جدو.

وضعت سماعة بيضاء صغيرة في إحدى أذنيها وأبقت الأخرى بدون سماعة، ودفعني الفضول لمعرفة ماذا تسمع لكن لم أحب التطفل، فبادرتني هي بسؤالي تسمع معي أغنية؟ وقبل أن أرد دفعت لي السماعة الأخرى.

وكان صوت فرانك سيناترا يغني killing me softly

ورحت أتذكر سنوات بعيدة، أبعد من قدرة ذاكرتي المهترئة على العمل، غير أن الأغنية أعادت إليّ أيامي القديمة مع زوجتي الراحلة.

***

حرب الفلسفة

متى اكتشفنا أننا كبرنا؟ كنت أحب لو يظل الطفل في داخلي يلهو ويمرح بلا هم وتفكير عميق ومشكلات، في الصغر عندما كنت أسمع أبي يخبرنا أنه يعاني من الصداع لم أكن أفهم معنى الكلمة، كبرت وأصبحت أستيقظ من النوم بصحبة الصداع! سألت ليلى عن حبة مسكّن، قالت سأبحث لك، وبدأت تخرج محتويات حقيبتها، أدهشني للمرة الثانية كثرة أصابع حمرة الشفاه التي تخرجها من الحقيبة وسألتها عنهم جميعًا، ضحكت ولم ترد، وأكملت البحث..

لم نجد دواء للصداع، وطلبت من عامل البوفيه أن يبحث عنده، كنت أشعر بحفرة تتسع داخل رأسي، وأنقذتني السيدة الأربعينية ذات النظارة السوداء، لا أعرف كيف جاءت من السماء وجلست بالقرب منا، أخرجت لي علبة كاملة من المسكن، عجيب أمر تلك المسكنات، كيف تؤثر الكيمياء في المخ والأعصاب لهذه الدرجة؟!

تطوعت السيدة بالحديث معنا، قالت: لعل هذا الصداع من كثرة الأفكار التي تدور في رأسك، نحتاج من وقت لآخر أن نتحكم في الأصوات التي تصرخ داخل أدمغتنا، نحتاج أن نُسكِت ذلك الميكرفون الذي يتحدث في أذنك وحدك ونهدأ قليلًا.. ويبدو أن السيدة كانت تتابع كلامي مع ليلى، وتستمع إلى حكاياتنا عن المال والاقتصاد وقصة اكتشاف السكر وما حدث في العالم.. شكرتها ودعوتها للانضمام للحديث معنا.. ولما طلبت منها ذلك نظرت إليها ليلى وابتسمت ابتسامة ذات

مغزى.

كانت ليلى تنتظر مني إجابات عن باقي أسئلتها، كيف يعمل العالم؟ كيف يتحرك؟ ولماذا تحدث الحروب والشرور ويموت الناس؟!

وقالت لنا السيدة الأربعينية: لا تفكروا في هذه الأمور، دعوا كل شيء يسير كما هو، العالم لن يتوقف عن الحرب لو عرفنا الأسباب التي تنشأ بسببها الحروب، والشر لن ينتهي من العالم لو عرفنا أسباب حدوثه، فلنتحدث عن الطعام، الحديث عن الطعام والكوميديا أمر مبهج ولا يسبب الصداع..

فكرت في كلام السيدة وكان يحمل منطقًا لا أزمة فيه، لكن ما شغل بالي حقًّا ودفعني للكلام أني ليس لديّ إجابات شافية عن أسئلة ليلى، عندي بعض التصورات لا أكثر.

لقد اخترع الإنسان الفخاخ وبرع في صنع الشرّ، حتى إنه لما وجد الصقور تتغلب عليه بالطيران والوحوش بالقوة والافتراس والفهود بالسرعة فقد ابتكر الحِيَل التي يتغلب بها عليهم جميعًا.

وكل ذلك كان قبل اكتشاف البندقية والمدفع.

عندما اخترع الإنسان النصل، وقف شامخًا متخيلًا أنه وصل إلى ذروة القوة، ساعده النصل على الصيد والقتال، كان أداة نافذة للنصر، ولما اخترع السهم والقوس تغلّب على المسافة والمكان ووثب نحو المستقبل.. لقد طوّر الإنسان أدوات الحرب حتى إن اختراع العجلات الحربية التي يجرها الأحصنة

قد غيّر خريطة الانتصارات في الحروب القديمة.

وبالسير على خط التاريخ سنكتشف أنه كلما طور الإنسان من أدوات الحرب كلما زادت قدرته على النصر والسيطرة وفرض النفوذ، من السيف إلى القوس والبندقية والمدفع والصاروخ والقنابل النووية وبعد ذروة الوصول إلى قوة تدميرية هائلة وجد الإنسان نفسه أمام معضلة أخلاقية، فكل تلك القوة الهائلة لا يمكن استخدامها لأنها خرجت عن مدار الحرب ودخلت في مدار الإبادة للشعوب والتي تمثل جرائم حرب، أصبح العالم يمتلك القوة ويخشى استخدامها(34).. وبالتالي كان على الإنسان أن يغير من سياسته قليلًا؛ فبدلًا من الصاروخ يمكن استخدام حقنة مكتظة بالأمراض سرعان ما تنتشر بين الناس؛ فقدرة الڤيروس الواحد على إخضاع العدو ربما تكون أكبر من تدميره بقنبلة انشطارية؛ لأن بسلاح بيولوچي واحد يمكنك تدمير قوة العدو ثم تحصل على أمواله وتسيطر عليه مقابل تقديم الدواء له!

الحرب التي كنا نعرفها بشكلها التقليدي أصبحت طرازًا قديمًا، تستخدم في حالات معينة والآن يتحدث العالم عن الحروب السيبرانية والإلكترونية، وحرب البيانات والمعلومات والخصوصية، تخيل أن يعرف عدوك كل شيء عنك من خلال هاتفك المحمول، تخيل أن يحلل عدوك بيانات كل مواطني بلد معين من خلال هواتفهم ومحادثاتهم ومشترياتهم واهتماماتهم وتتبع خصوصياتهم ويكتشف ما وصلوا إليه من علوم، تخيل لو أن هواتفنا وحواسبنا المرتبطة بالإنترنت يمكن تتبعها

جميعًا، فإن كل فكرنا وابتكاراتنا وأبحاثنا وتقارير الشركات والحكومات وغيرها يمكن تتبعها دون أن ندري!

إن أعظم خدعة يقوم بها جهاز مخابراتي أن يحولك إلى مصدر معلومات دون أن تعرف أنت ذلك!

في إحدى المحاضرات الشهيرة المنتشرة عبر الإنترنت ظهر ضابط سابق في (KGB)(33)يحكي عن نهاية عصر الحروب التقليدية وبداية عصر الحروب الجديدة، ومنها حرب الوعي وحرب المصطلحات(32) وحرب المعرفة وحرب البيانات!

وإذا كانت الحرب تغيرت من النصل للصاروخ ومن الصاروخ للحقنة ثم للإشاعة والميديا والإنترنت فإن مقدمات الحرب ربما بدأت بسبب الفلسفة أحيانًا وبسبب المصلحة والبقاء أحيانًا أخرى.

كانت السيدة الأربعينية متململة، لكن ليلى كانت منتبهة وشغوفة للكلام، نظرت للسيدة وسألتها، ما اسم حضرتك؟

- ألا تعرفني؟

- يبدو أنك مشهورة، اعذريني.

- لست مشهورة، ولكن قد أبدو معروفة نسبيًّا على الأقل بالنسبة لك.

لم أفهم ردها، وسألتها لو كانت تريد تغيير الحديث، ووافقت فورًا، غير أن ليلى أصرت أن تسمع باقي الحكاية.. قلت للسيدة أعزمك على قهوة وتسمعيني، وضحكنا كلنا، كانت

رشوة ساذجة من أجل شهوة حديث عجيب عن حرب الفلسفة..
قبل أن أطلب لها القهوة كانت هي قد طلبت لنفسها نيسكافيه وطلبت لي قهوة أقل من "المظبوط" وأكثر من "عالريحة" ولم تمنحني فرصة لأتساءل كيف عرفت طلبي، كيف تسللت أصلًا إلى تلك الجلسة خلسة، قالت بسرعة اسمي رباب، يمكنك أن تناديني بست رباب أو روبي لو أردت..

كل الحسابات مربكة مع هذه السيدة الروبي، كيف تفعل ذلك معي بكل الشخصية الكاسحة والسهلة، ما سر عفويتها؟!

جاءت القهوة وقالت الست رباب: "حققت طلبك وعزمتني، أكمل ما تريد قوله" وللحظة أردت ألا أكمل وأن أصمت للأبد، لكن إكرامًا لفضول ليلى تحدثت، رحت أحكي بلا توقف..

في ثقافات العالم القديم انقسم العالم إلى شمال وجنوب، الشمال المتمثل في أوربا، والجنوب المتمثل في إفريقيا والشرق الحالي.

ثقافات العالم الشرقي الجنوبي في مصر وبلاد ما وراء النهرين والهند وبعض مناطق الشرق الآسيوي عرفت منذ القدم قيمًا روحانية ونزعة لوجود أديان مثل الهندوسية(31) والبوذية(30) والكونفوشيوسية.

وفي مصر عُرفت الأديان بالآلهة، عبادة الإله آمون وعبادة الإله آتون وغيرها من الآلهة، هذه الأديان في الشرق وفي مصر ساهمت في خلق حالة من التوازن الروحاني والمادي، لقد

قدمت هذه الأفكار إجابات عن أسئلة أساسية شغلت الإنسان في بداية الزمان، ورغم تعدد فلسفات وأفكار تلك الديانات غير أنها سعت جميعًا لحالة واحدة، أن يصل الإنسان إلى مرحلة التحرر الروحي من الجسد، وكل ديانة أطلقت على ذلك اسمًا يخصها.

عند البوذيين أطلقوا اسم النيرڤانا على حالة الخلاص، عندما تتخلص الروح من الجسد وتذهب بعيدًا عن ذلك السجن المسمى الجسد الذي حُبست فيه أعوام طويلة، كان البوذيون يرون الإنسان معذبًا دائمًا بالبحث عن الطمأنينة، وأنه يواجه يوميًّا طبقات من المعاناة، وأن تلك المعاناة ستظل تحدث طالما ظلت الروح محل الجسد.. وذلك بسبب حاجة الجسد إلى الشهوات المادية، وطالما سعى الإنسان للشهوات فإنه سيعاني لأن اللذة تتطلب العناء والمشقة لتحقيقها ولأن اللذة تجعلك عبدًا لها وبالتالي ستظل تطلب اللذة، وتلك الدورة من المعاناة في محاولات إشباع اللذة تجعل الروح حبيسة الجسد ولا سبيل للراحة إلا بالتحرر الكامل من شهوات الجسد أو الاستنارة كما أطلقوا عليها، أن تصبح الروح يقظة ومستنيرة بمقاومة الشهوات، حتى تأتي لحظة الخلاص أو النيرڤانا بخلاص الروح من الجسد يومًا ما.

لقد بالغ البوذيون في محاولات التحرر من المادية حتى إنهم زهدوا الحياة نفسها، وحرّموا على أنفسهم كل الملذات حتى الطيب منها، وابتكروا نظام الرهبنة الذي استمر حتى الآن وتم اقتباسه في بعض الأديان بعد ذلك.

أما الهندوس وباقي الديانات الشرقية، ما سبق البوذية منها وما تلاها، اعتمدوا على أفكار تتقاطع مع البوذية، كلها تسعى إلى حالة التحرر أو الانعتاق الكامل للروح عن الجسد، في الهندوسية أطلقوا عليها اسم "الموكشا" وهي الحالة التي تنفصل فيها الروح عن الجسد ويفنى الجزء المادي من الإنسان المتمثل في جسده، بينما تنتقل روحه إلى محلها الجديد، وذلك المحل الجديد ربما يكون إنسانًا جديدًا أو شجرة أو غيرها من الكائنات، يعتمد ذلك على عمل الإنسان في حياته السابقة، فلو كان عمله خيرًا فإن قانون "الكارما" أو الجزاء سيكافئه بأن تحل روحه في أجمل صورة، ولو كان العمل شرًّا فإن الروح ستحل في صورة خبيثة.

هنا أوقفتني ليلى وسألتني: ولكن ما ذنب الشخص الذي فعل أمورًا طيبة ثم حلت روحه في صورة غزال ليأكله ضبع ذو روح شريرة، أو يقتنصه صياد؟!

أليس هذا مفهوم ظالم للروح الطيبة؟!

ثم إن فكرة تصنيف الأرواح بالشر والخير والصلاح والخبث على الدوام فكرة ظالمة، فماذا لو قام أحد الأشخاص بفعل سيئ ومات ثم حلت روحه في شخص آخر؟! فما ذنب ذلك الشخص الآخر الذي حلت فيه روح خبيثة؟!

قلت لها: إن كل ما قالته منطقي، وظلت كل تلك التساؤلات موجودة حتى بدأت الأديان الإبراهيمية وجاءت بمفهوم جديد عن الإله والروح.

فلسفات الشرق لم تؤمن بوجود إله خالق للكون بالصورة التي نعرفها، كانت أقرب لتكون فلسفات روحانية، تجيب عن بعض التساؤلات، أما صورة الإله عندهم فكانت مشوشة ومرتبكة إلى حد كبير.

ولكن تظل الفلسفات الروحانية الشرقية تمثل حالة توازن بين الحياة المادية اللاهثة وراء اللذة والشهوات والاكتناز، وبين الحياة الروحانية الزاهدة المتأملة، تلك الحالة التي صنعتها الأفكار الشرقية ساعدت الإنسان المظلوم والفقير والمقهور في ذلك الزمان على النجاة من بحر اليأس والظلمات والمجهول، لكنها فشلت في تقديم صورة منطقية عن الإله خالق الكون؛ فظهرت العديد من التأويلات الغريبة التي لا تتسق مع المنطق، وأحيانًا رفضت التطرق لمفهوم الإله.

قاطعتني رباب وقالت: ولكن فكرة الإيمان أصلًا فكرة لا تتفق مع المنطق، نحن نؤمن بالغيب، أما المنطق فيحتاج إلى شواهد!

وسألتها: ما رأيك في النيسكافيه؟

- حلو، ولكن ما علاقته بالمنطق؟

- سأشرح لك، قولي لي هل هو مسكر أم مر؟

- أحبه مسكرًا، أضفت أربع معالق من السكر.

- هل يمكن أن يكون مسكرًا لو لم تضيفي السكر؟

- نعم ممكن، لو أضاف صانع القهوة السكر.

قالتها وابتسمت، كانت تلاعبني.

قلت لها: إذًا أنت لا تتخيلي أن يكون النيسكافيه مسكرًا إلا إذا أضاف أحد السكر إليه، هذا هو المنطق الذي أريد أن أصل إليه، لا تحدث الأشياء من تلقاء نفسها، لا يمكن أن يتحرك الكوب من تلقاء نفسه وتسخن المياه نفسها ويغلي الحليب نفسه ثم تطحن حبة البن نفسها ويأتي البن ماشيًا فيضع نفسه في الكوب ويطير الحليب في الهواء فيسقط صدفة في الكوب ثم تنفجر غلاية المياه فيتطاير الماء الساخن ويقع في الكوب ويدخل تيار هوائي من النافذة فيحرك كل ذلك ويقلبه وينتج كوب النيسكافيه.. لا يمكن تصور ذلك.. ولكن نتصور أن هناك من صنع النيسكافيه.. وبنفس المنطق نتصور أن الكون بكل ما فيه من دقة في كل التفاصيل لا يمكن أن ينشأ من تلقاء نفسه.. لابد أن هناك صانعًا قديرًا خلق الكون، هناك أديان قدمت صورة منطقية لخالق الكون، صورة مقدسة ومنزهة وتجعل الخالق القدير أكبر من كل شيء وسابق لكل شيء ولا يشبه تصورات البشر القاصرة، وهناك أديان قدمت صورة مشوهة عن الإله وتصورات غير منطقية.. والإنسان إذا آمن بإله فإنه يحتاج إلى إله قدير، عزيز، ذي قدرة لا محدودة ورحمة تسع كل شيء.. أما أن يعبد الإنسان إلهًا يشبه البشر في قدرتهم وضعفهم وتصرفاتهم فهذا أيضًا ينافي المنطق، على الأقل بالنسبة لي.

نظرت لي رباب وقالت في غيظ مع خفة دم: أنت دائمًا تفلسف الأشياء لصالحك، هل تحول كوب النيسكافيه الخاص

بي لنظرية عن خلق الكون؟!

ضحكت أنا وليلى وطلبت مني ليلى أن أكمل حديثي.

ظل كل شيء في الشرق حائرًا حتى ظهرت الأديان السماوية، وكان لها أثر السحر على إنسان ذلك العصر، لأنها بجانب خلق حالة التوازن النفسي فقد قدمت إجابات منطقية يمكن للعقل إدراكها وفقًا لإمكانياته عن خالق هذا الكون وعن طبيعة النفس البشرية، وعن صراع الإنسان مع نفسه ومع الشيطان.

لقد بدأت الشرائع السماوية مع رحلة سيدنا إبراهيم للبحث عن الحق، لقد بدأ البحث بطرق منطقية حتى أهداه عقله وقلبه إلى الإيمان، وجاء من بعده تعالم اليهودية التي دعت إلى الإله الواحد خالق الكون، ثم المسيحية التي عرفت الناس على الله خالق الكون وعلى شرائع التسامح والتراحم.. ثم جاء الإسلام فخاطب النفس وخاطب العقل، لقد طرح الإسلام كافة الأسئلة التي سيسألها الإنسان لنفسه يومًا ما، وقد جاءت بصورة واضحة وتدعو بشكل صريح للتأمل والتفكر.

(قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ) (29).

(فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ)(28).

(قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)(27).

(أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ)(26).

لقد جاءت الأسئلة في القرآن كما نفكر فيها، لماذا يخلق الله من يفسد في الأرض ويسفك الدماء وكيف بدأ الخلق، وكانت

الإجابة دائمًا في التفكر والتدبر ورد الأمور إلى حقيقتها، لقد كان السؤال الأول للملائكة عندما أرادوا أن يستفهموا من الله "هل تخلق في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء؟" فكانت الإجابة في كلمة واحدة "اقرأ" وهي الكلمة التي بدأ بها القرآن.. لأن في الأمور الفكرية هناك قاعدة فلسفية تقول بأن البحث عن الإجابة في حد ذاته إجابة، هناك بعض العقليات لا تعرف فكرة البحث، هي تريد إجابة واضحة ومباشرة وكأنك تسأل سؤالًا هندسيًا عن مساحة الدائرة وتنتظر أن تخبرها أن مساحة الدائرة تساوي "٣.١٤ في تربيع نصف القطر" هكذا تفكر بعض العقليات تسألك السؤال وتنتظر الإجابة سواء كانت الإجابة هي قاعدة أو احتمال، المهم أن الإجابة توصل إلى قيمة ثابتة وواضحة.. أما في الأمور الفكرية نقول إن التساؤل نفسه أحيانًا يكون هو الإجابة، لأن السؤال في الفلسفة هو بداية رحلة بحث عن الإجابة، ومعنى أنك بدأت تبحث أنك بدأت تصل.. لذلك فإن إجابة السؤال الأول للملائكة كان في البحث، في التعلم، في القراءة، في المعرفة، لأن الإجابة قد تكون بعدد البشر، قد تكون الإجابة ليست نموذجًا واحدًا ثابتًا أو قيمة ثابتة، ولكن كلما بحث شخص سيصل إلى نتيجة تمثله.. وكل النتائج ستصل بك إلى الله.

وقد يطول الشرح لو حاولنا تفسير المقصود بمشكلة الشر، والمقصود بالإرادة الحرة للإنسان(25)، ولكن يكفي ذكر أن الإنسان في رحلته في الحياة يواجه أربع معارك من بداية رشده وحتى مماته، وقد أشارت الأديان السماوية وأشار الإسلام بصورة واضحة إلى تلك المعارك التي سيخوضها الإنسان

ومنها تبدأ كل الشرور، معركة الإنسان مع عدوه الأول وهو نفسه التي بداخله ومعركته الثانية مع عدوه الثاني الشيطان، ومعركته الثالثة مع الهوى والشهوات، ومعركته الرابعة مع الدنيا وزينتها والجري وراء المادة بشكل أعمى.

وتلك المعارك ليس المقصود بها كراهية الدنيا والبعد عن متع الحياة الطيبة والجميلة، وليس المقصود منها اليأس من النفس، ولكن المقصود منها هو إدراك حقيقة التفلت والنزعة للخروج عن المألوف في تلك الأعداء الثلاثة ثم يأتي الشيطان بوساوسه ليشجعك على الاستسلام في المعارك الثلاثة فتتورط في الأزمات وتخرج عن المنطق وتندفع وراء الرغبات فتصبح عبدًا عند اللذة!

وهكذا كان للصلاة فلسفة خاصة، فكانت هي صلة ووصلًا بين الأرض والسماء، فكلما زادت تلك الرابطة وتوطدت علاقة الإنسان بالسماء، كلما كان قادرًا بشكل أكبر على المقاومة في معاركه الأرضية، والانتصار على ماديته.

لقد جاء الإسلام بصورة منطقية عن الإله وتصور منطقي وعقلاني عن نشأة الكون، وعن مآل الخلق في النهاية ويطول فيه الحديث، غير أن أهم ما جاء في الإسلام هو التوازن (وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ)(24).

إن التوازن في الإسلام بين النفس والمادة وبين الحياة والموت، بين طلب الدنيا وطلب الآخرة، بين صفو الحياة بالرضا والقناعة وبين السعي والاجتهاد للنجاة في الحياة الآخرة والسعي والاجتهاد لتعمير الحياة الدنيا بأسباب النجاح

والتفوق، بين التسامح والدفاع عن النفس، بين الصفح وبين القصاص، بين التسليم لله والأخذ بالأسباب والعمل، بين التوكل والتواكل، بين الحزن والفرح، بين الرجل والمرأة.. ويمكن أن نعدد صور التوازن التي جاء بها الإسلام في ألف صفحة، هكذا كانت الأديان السماوية الإبراهيمية يقدمون دعوة متوازنة بين النفس والمادة ويقدمون تصورًا عن الدين متسقًا مع المنطق.

الدين الإسلامي وضع للقرآن "النص" قدسية خاصة؛ فالنص القرآني هو المنهج الذي يقدم للمؤمن به تصورًا عن فلسفة وشرائع هذا الدين، في الوقت نفسه فإن أول ما نزل من القرآن هو طلب العلم (اقْرَأْ) (23).

وبهذا يضع القرآن أول قاعدة للتوازن وهي الإيمان والعلم.

قاطعتني ليلى بسؤال مهم: ولكن لماذا تتعامل مع الأديان باعتبارها فلسفة؟

- الفلسفة هي رحلة الإنسان في البحث عن الحكمة، عن القيم، عن الجمال، عن الحق، عن الحقيقة.. ما رأيك، إلى أي درجة تتسق الفلسفة مع الأديان؟ كلاهما رحلة بحث عن الهوية، هويتنا وهوية العالم، وكلاهما يسعى للحكمة والخير.

كانت أشعة الشمس انحرفت عن الطاولة، وتغيرت زاويتها، وأصبح ضوء الشمس في عيني مباشرة، وضعت يدي أمام عيني لأحجب أشعة الشمس، خلعت رباب نظارتها السوداء العملاقة وأعطتها لي لأرتديها.. عندما رأيت عينيها أحسست

أني أعرفها جيدًا، رأيت في عينيها ذكرياتي وأيامي.. وددت لو أبقى معها أطول فترة ممكنة، كانت عيناها زرقاوين، وبتغير لونهما مع النور، ولما أطلت النظر لها وهي تمد يدها لي بنظارتها، ارتبكت وأعادت النظارة إلى عينيها ثم نادت عامل البوفيه ليغلق ستارة النافذة.. جاء وأغلق جزءًا منها حتى انكسر ضوء الشمس عن عيني، وبقيت النافذة نصف مفتوحة ونصف مغلقة، وقلبي نصف معلق بتلك السيدة ونصفه الآخر مع تلك الفتاة الطيبة.

كنت أشرد مع رباب، وقاطعتني ليلى بابتسامة ساخرة وسؤال، هامس، هل أعجبتك؟

انتبهت منتفضًا من الإحراج وقلت لها: من؟ وردّت في لؤم: هل أعجبتك النظارة؟ وضحكت رباب فاحمرّ وجهي خجلًا، فقدت قدرتي كرجل متمرس في أن أداري حرجي، وقلت لليلى: هل تعرفين مصير هؤلاء الذين يضعون الآخرين في مواقف محرجة؟

قالت: لا أريد أن أعرف، ولكني أعرف مصير هؤلاء الذين يغيرون دفة الحديث وموضوع الكلام.. ما رأيك أن نعود لنصف العالم الآخر، لقد حكيت لنا ما دار في النصف الجنوبي من العالم، ولكن ماذا حدث في الاتجاه الآخر؟ النصف الشمالي من الأرض؟

تشكلت أوربا التي نعرفها حاليًا والتي كانت تمثل النصف الشمالي من الأرض، عبر عدة مراحل زمنية.. نحن نقف الآن عند الجانب الشرقي لأوربا التي نعرفها حيث تشكلت الحضارة

اليونانية القديمة، كان اليونانيون قد برعوا في تشكيل جيوش متقدمة عسكريًّا وسياسيًّا، وقد تشكلت في اليونان أول صورة للمدينة في أوربا والمتمثلة في مدينة أثينا، غير أن هجمات الفرس القادمة من الشرق وضعت اليونان في معركة حقيقية مع البقاء، ظلت هذه الحروب تتكرر حتى نجحت اليونان في طرد الفرس من المنطقة، لكن ظل التساؤل عن قوة تلك الجيوش القادمة من الشرق، كانت جيوش الشرق لديها شيء مختلف، كان لديها فلسفات دينية شرقية كما حكينا عنها، الهندوسية والبوذية والزرادشتية وغيرها، كلها فلسفات تقدم تصورات دينية ومعتقدات وطقوسًا وشعائر.. في الوقت الذي اقتصرت فيه أفكار الدين في أثينا على الوثنية التي تؤمن بألوهية قوى الطبيعة وتجعل لكل قوة إلهًا يمثلها له شكل واسم وقصة أسطورية، كانت فلسفات الشرق القادمة مع الغزو مصدر قوة كبيرة للشرقيين، وكانت مصدر تساؤل هام ظل قرابة القرن حتى بدأ عصر الفلسفة في اليونان..

في الوقت الذي لمعت فيه أثينا كانت مدينة روما قد تشكلت وأصبحت إمبراطورية لا ينافسها قوة في أوربا سوى قوة الحضارة الإغريقية في اليونان، لم تتشكل لروما أي فلسفات أو معتقدات دينية حقيقية، كانوا يؤمنون بعبادات وثنية(22) تتمثل في تقديس قوى الطبيعة وفي الوقت نفسه كانت القبائل الجرمانية(21) الهمجية في شمال أوربا تفعل المثل، لذلك يمكن اعتبار أن أوربا كلها كانت تعبد قوى الطبيعة وتمثلها بصورة آلهة.

في روما وفي شمال أوربا ظهرت محاولات للتقرب للطبيعة والتقرب للآلهة تتمثل في القرابين، كانوا يؤمنون أن البحيرات والمستنقعات والأنهار هي قوة الإله على الأرض؛ وبالتالي كانوا يبدأون الطقوس والاحتفالات لإرضاء المستنقع/ الإله، وذلك بتقديم قربان خشبي على صورة إنسان ثم تطور الأمر وبدأوا بتقديم قرابين بشرية حية بدفنها حية في المستنقعات وتثبيتها في القاع ليضمنوا ضرورة بقاء الجسد في الماء، وانتشرت ثقافة وصم المرأة بالسحر، وشنوا حملات لتطهير القرى من الساحرات وتقديمهم قرابين للطبيعة، لذلك يمكن تخيل أن ثقافة القرابين في أوربا أفقدت الأباطرة والإقطاعيين احترامهم للإنسان في ذلك العصر، حتى يمكن تصور فكرة التسلية بألعاب الموت وصراع العبيد حتى الموت في دورات الألعاب لتسلية الحاكم والشعوب، ويمكن تخيل أن مدينة مثل أثينا اقترب عدد العبيد فيها من ثلث سكان المدينة، وفي بعض المدن الأوربية اقترب عدد العبيد من نصف المدن!

عندما وجدت روما ازدهار حضارة اليونان يمثل تحديًا لها، كان عليها القضاء سريعًا على أي تطور محتمل لليونان، وهذا ما حدث فيما بعد، فقد اجتاحت روما اليونان وتشكلت فيما بعد إمبراطورية أكبر وأحدث تضم روما في الغرب وتضم القسطنطينية في الشرق أو ما يمكن اعتبارها العاصمة الشرقية الجديدة للدولة الرومانية، غير أن القبائل الجرمانية الهمجية القادمة من شمال أوربا كانت تترصد لروما بكل ما تشكله، وفي فترة ضعف اجتاحت تلك القبائل البربرية روما ووسط أوربا وسيطرت عليها، وبذلك تسقط الدولية

الرومانية وكل ما تمثله وتصبح الدولة البيزنطية المتمثلة في القسطنطينية هي كل ما تبقى من روما القديمة.

قالت ليلى: وكيف أصبحت أوربا بعد ما حدث؟

أوربا في ذلك الوقت لم يعد بها حكومة أو قانون، لقد اجتاحت القبائل البربرية كل أوربا تقريبًا، لكن أمرًا مهمًّا حدث قبل الاجتياح بسنوات، لنرجع بالزمن قليلًا للخلف، بعد انتصار روما على اليونان، لم يكن في روما مدرسة فلسفية وفكرية تنافس فلسفات اليونان بكل ما تمثله تلك الفلسفات من وجاهة وقوة وسطوة فكرية على العامة، غير أن روما نظرت لما هو أبعد من ذلك، كانت فلسفات الشرق رافدًا ملهمًا لليونان عندما جاء الفرس ومعهم ديانات الشرق وحاربوا أهل اليونان وهم محملون بعقائد وفلسفات وأفكار ملهمة قادمة من الشرق.

وكان للفلاسفة اليونانيين قدرتهم الفائقة على التحليل والابتكار والتطوير وتقديم نماذج مطورة وجديدة عن مفاهيم مثل العدل والحق والجمال والحكمة ومفهوم الدولة والمدينة الفاضلة والحياة والموت والخلق.

في ذلك الموقف ولأسباب كثيرة ومتعددة كان على الدولة الرومانية أن تجد من ينقذها ويقدم النموذج الفكري الذي ينافس ويقدم تصورًا شاملًا ويسهل اتباعه من العامة، وهنا كان موعد أوربا للمرة الثانية مع إلهام جديد من الشرق، كانت المسيحية هي الملاذ الأول الذي يلبي كل ما تحتاجه روما.. غير أن تراث الوثنية الأوربية لم يترك المسيحية الشرقية تنبت

في رحم أوربا كما هي!

رمقتني الست رباب بعين زائغة، وكان يمكن تفسير تلك النظرة أنها نظرة زهق أو نظرة غيظ من كثرة حديثي، فسكتُّ، تنهدت وسكت، وأخرجت جراب التوباكو لحشو الغليون، تحاشيت النظر في عين رباب، وتشاغلت بإعداد البايب ورحت أوجه حديثي لليلى، هل تفهمين ما حدث؟ قالت: نعم لكن لا أفهم الرابط، بدأت كلامك بالحديث عن الحروب وتطور الأسلحة ثم تحدثت عن ثقافات أهل الشرق ودياناتهم، والآن نتحدث عن ما حدث في أوربا، كل الأمور تدعو للارتباك!

قالت رباب بسرعة: الأمر واضح يا ليلى، يحكي عن تطور السلاح، بدأ بالنصل والسهم والقوس، ثم المدفع، ثم الحقنة، وهو يحكي لنا الآن كيف تطور الصراع بين الشرق والغرب، أليس ذلك ما تقصده؟

سألتها: ألم نتقابل قبل يومنا هذا، إن هذا العقل الذي فهم ما أقصده قبل أن أوضح وأشرح، إنما هو عقل يعرفني جيدًا!

ضحكت وقالت لا تضيع الوقت، أكمل للبنت المسكينة ما بدأت الحديث عنه ولكن بشرط.

- ما هو؟

- بمجرد أن تنتهي من تلك القصة لا تتحدث عن أي شيء عميق حتى نصل، يمكن أن تحكي لنا نكاتًا أو تحدثنا عن الحب

- سأنهي القصة وأنصت لكما، عجيب أمر السفر في

القطارات، تكون وحدك تمامًا، وفجأة تجلس مع الغرباء تحكي لهم تاريخ الصراع بين الشرق والغرب، بينما ينتظرون أن تحدثهم عن الحب! أين توقفنا؟

ردت ليلى بتركيز: توقفنا عندما أرادت روما الدخول في المسيحية.

بالظبط هذا ما حدث.

ولكن لِنَعُدْ بالزمن إلى اجتياح القبائل الجرمانية لأوربا ونقف أمام غياب الحكومات والقانون، وبالتالي كان الإرث كله يقع تحت قدمي الكنيسة المسيحية الغربية في أوربا، كل شيء تحول في تلك الفترة إلى انصياع تام للكنيسة، كانت تمتلك السلطة وتمتلك انصياع العامة لها، وبذلك أصبح في يدها كل السلطات حتى إنها كانت تقرر من يدخل النار ومن يدخل الجنة، وكان الملوك يخضعون بشكل تام للكنيسة..

هناك واقعة مشهورة تسمى "إذلال كانوسا" عندما ركع الإمبراطور هنري الرابع على قدميه ثلاثة أيام ولياليٍ أمام قلعة ماتيلدا التي يمكث فيها البابا جريجوري بابا الكنيسة، وبعدها اضطر الإمبراطور إلى تقبيل قدم البابا اعتذارًا على محاولة الإمبراطور تنحية البابا عن ترأس الكنيسة.. إن الخيال يصبح طفلًا يلهو أمام الحقيقة عندما نعرف وقائع ما حدث في تلك الفترة فقد مُنع التفكير بأمر من الكنيسة ومنع ممارسة العلوم ومناقشة الفلسفة وأُعدم المخترعون والعلماء، وأطلق المؤرخون الأوربيون أنفسهم على تلك الفترة عصور الظلام الوسطى.

تصادف في تلك الفترة العصر الذهبي لبلاد المسلمين علميًّا وتقدمهم في علوم الرياضيات والفلك والفيزياء والطب وسيطرتهم على رقعة واسعة من الأرض، حتى يقال إن إمبراطور الدولة البيزنطية طلب من باباوات الكنيسة الأوربية الوقوف بجواره في حربه الصليبية ضد الشرق في مقابل أن يتحول من المذهب الأرثوذكسي الشرقي إلى المذهب الكاثوليكي الغربي(20) وبدأت الحروب الصليبية بمباركة من الكنيسة الأوربية.. ولكن بعد انهيار الحملات وفشلها وعودتها خائبة كانت الفرصة ذهبية لنهاية عهد سيطرة الكنيسة على أوربا خاصة مع ترجمة العلوم عن المسلمين وبداية انفتاح الأوربيين على التفكير والفلسفة وأدوات البحث العلمي.

لقد مثلت الهزيمة خيبة أمام الشرق، ومثلت العلوم الشرقية انهزامًا فكريًّا للمرة الثالثة(19) لأوربا، وبهذا فقد أدركت أوربا أن كل النجاة في العلم، خاصة بعد شيوع الجهل الذي تسبب فيه رهبان الظلام في العصور الوسطى، لقد فتح الأوربي عينه ووجد الرهبان يعالجون الأمراض على أنها مس شيطاني ويقاومون الرياح والأعاصير بأجراس الكنائس ويضعون يد المتهم في ماء مغلي ثم يلف بقطعة قماش فلو برأت اليد اعتبروه بريئًا ولو التهبت اعتبروه مذنبًا!

ويتهمون النساء بالسحر والشعوذة ويلاحقونهم في أحيانٍ كثيرة.

وبانتهاء الحملات الصليبية قرر الأوربيون نهاية عصر الجهل

وبداية عصر العلم، وكان نتيجة تطور العلم لسنوات طويلة ما توصلت إليه أوربا بمرحلة الثورة الصناعية التي فتحت أعين الأوربيين على قدرة جبارة لا يوقفها شيء، ومنذ تلك اللحظة يمكن اعتبار أن العلم صار دينًا جديدًا لأوربا وما يتبعها من مستعمرات غربية!

ولكن كيف نفسر العلاقة بين "فلسفة العلم" والدين في أوربا؟

نحن أمام مجتمع تعرض لعدة هزائم نفسية، خاصة بعد مبالغة قادة أوربا في التوقعات والوعود، لقد وعدوا شعوبهم بحرب مقدسة يقف على رأسها الكنيسة(18) نفسها.. وبعد الرجوع بخيبة أمل من الشرق، بالإضافة لما كان يعانيه الناس من تفشي الجهل والمرض والفقر، كان المجتمع قد فقد إيمانه بما تمثله تلك التوقعات وما تمثله السلطة الدينية وبدأ عصر العلم.

يؤمن العلم بشيء واحد فقط وهو العلم نفسه، ولا يقع مصطلح الإيمان في قاموس العلم بأي معنى غير ما يمثله العلم من واقع، والعلوم التجريبية التي يمكن اختبارها في المعامل وتجريب نواتجها والخروج منها بنواتج ملموسة كانت هي كل العلم، لذلك فإن كلمة العلم في الغرب تعني في أغلب الظروف العلوم التجريبية الطبيعية، حتى إن العلماء أنفسهم أحيانًا يعتبرون العلوم الإنسانية والعلوم غير التجريبية ما هي إلا مجرد نظريات ومواد بحث ودراسة، يمكن تتبع صراع ظل لعشرات السنين بين علماء الأعصاب وعلماء النفس حيث

اعتبر علماء الأعصاب أن ما يسمى بعلم النفس والتحليل النفسي ما هو إلا هلاوس طالما لا يمكن تجريب ذلك العلم في المختبر!

إذًا فعقيدة العلم لا تعترف إلا بالعلم التجريبي الذي يمكن اختباره معمليًّا، وقد جاءت الرياضيات كعلم وصفي يمكن من خلاله وصف كل العلوم التجريبية في صورة بيانات ومعادلات، وبهذا فكانت الفيزياء أو علم الطبيعة والرياضيات هي أم كل العلوم في مرحلة من المراحل.

وكان من أدبيات العلم هو قانون السببية، الأمر الذي أثبتته الفيزياء وأيّده المنطق، وهو أن لكل نتيجة سببًا، فلا يمكن أن يحدث شيء بدون سبب، لا يمكن أن يتحرك جسم بدون مسبب للحركة، ولا يمكن أن توجد مادة بدون موجِد لها، ولا يمكن أن تنشأ طاقة بدون مولد للطاقة؛ وبالتالي كان من المنطقي عقليًّا وعلميًّا أن يقتنع المجتمع العلمي بأنه لا يمكن وجود الكون بدون وجود خالق للكون، فوجود الكون نتيجة والمسبب هو الخالق.

أمر طبيعي ومنطقي، يتماشى مع كل القوانين والعلوم والقواعد المنطقية.

غير أن العلم ظل منفصلًا عن حقيقة وجود خالق للكون؛ وذلك لعدم القدرة على إثبات ذلك في المختبر، المنطق والقاعدة ومبدأ السببية يتفقون مع الفكرة، ولكن العلم سبق وقيد نفسه بقيد المختبر؛ وبالتالي تحول ذلك القيد إلى حبل مشنقة.. في فلسفة العلم فإن كل الحقائق هي مجرد احتمال،

والأكيد الوحيد هو الحقيقة العلمية التي تم إثبات صحتها، وذلك مع ثبات باقي العوامل، وحتى يأتي اكتشاف جديد يغير تلك الحقيقة.

وهنا كان القيد العلمي الثاني، أن الحقيقة لا تعتبر حقيقة إلا إذا كانت حقيقة علمية مختبرة، رغم أن الحقائق العلمية تتغير بتغير الاكتشافات وبتغير العوامل، ولكن هذا هو تعريف الحقيقة عن العلم.

لقد ظل العلم منفصلًا عن الغيب، حتى حدثت ثورة في مفهوم قوانين الفيزياء، إنها أعوام يمكن تسميتها سنوات أينشتاين، جاء أينشتاين بقوانين النسبية والتي بدأت في تفسير الكون من مفهوم جديد، كانت النظرية النسبية تسبب ارتباكًا شديدًا في كل المفاهيم السابقة، لقد أسقطت النسبية المفهوم التقليدي عن سريان الزمن، حيث أثبتت النظرية أنه يمكن فيزيائيًا توقف الزمن إذا تحركنا بسرعة الضوء.. النظرية أثبتت ذلك "نظريًا" وليس تجريبيًا؛ لأننا لا زلنا لا نمتلك أدوات في الوقت الحالي تمكننا من التحرك بسرعة الضوء.

وبالتالي أصبح للمرة الأولى من المقبول علميًا أن يتوقف الزمن، وبهذا أصبح- نظريًا- إذا توقف الزمن أن تتوقف الأسباب عن الحدوث؛ لأن حدوث السبب يتطلب زمنًا يحدث فيه.. أنا لو حركت يدي نحوك فذلك يحتاج إلى زمن ولو جزء صغير من الثانية حتى تتحرك يدي نحوك، فلو ثبت علميًا احتمالية توقف الزمن فذلك يعني توقف الفعل وبالتالي توقف السبب..

المعضلة التي خلقها أينشتاين تجاوزته هو شخصيًّا؛ لأنه إذا جاز منطقيًّا توقف الأسباب فكيف حدثت النتائج التي نعيشها؟! كيف تشكلت الحياة إذا جاز غياب المسبب؟!

الفيزياء التي كانت دومًا تتفق مع المنطق، أصبحت للمرة الأولى تتعارض مع المنطق!(17).

ثم جاءت بعد ذلك ميكانيكا الكم والفيزياء الكمية، واكتشف العلماء قدرة وجود جسيم ذري في مكانين مختلفين في الوقت نفسه، أو قدرة تحرك الجسيم في اتجاهين مختلفين، وبالتالي وقف أهل العلم للمرة الثانية حائرين أمام تفسير تلك الظاهرة.

قوانين الفيزياء الطبيعية التي كانت تفسر كل شيء في الكون، وقفت فجأة حائرة للمرة الأولى، وتحول كل شيء حرفيًّا إلى "مجرد احتمال" من منظور العلم(16).

كانت تلك المعضلة العلمية هي محور الكون في المنظور الحديث، وأثناء الوقوع في بحر الأفكار الفلسفية تلك غاب عن العلم أهم مبدأ علمي والقيد الوحيد الذي وضعه العلم لنفسه، وهو القدرة على تجريب الأمر في المختبر! لم يتم اختبار توقف الزمن فعلًا، كان جائزًا نظريًّا فقط.

غير أن المجتمع العلمي انصرف هنا عن ذلك القيد؛ لأنه كان يتماشى مع هوى النفس القديم في أوربا الحديثة بالبعد عن كل ما يمثله الدين بعد عصور الظلام القديمة والهزائم النفسية التي حدثت لأوربا.

يمكن اعتبار ذلك الوقت هو بداية تشكيل عصر يُطلق عليه

"ما بعد الحداثة"، وهو العصر الذي نعيشه إلى الآن، والذي يؤمن فيه العالم بالعلم بصورة مقدسة، ويؤمن فيه العلماء بأنه يمكن حدوث نتيجة بدون سبب - نظريًّا فقط - رغم تعارض العلم مع المنطق وعدم إثبات ذلك علميًّا، ونتيجة لذلك فإن المجتمع العلمي في أوربا أصبح مقتنعًا باحتمالية نشأة الكون بدون خالق (نظريًّا).

سكتُّ للحظة وتنهدت، قلت لليلى: هل تفهمين أي شيء من كل ما أقوله عن الفيزياء والمنطق والعلم؟

قالت الأمر صعب جدًّا ومهم جدًّا، لكن بشكل عام أستطيع فهم ما تريد قوله.. أوربا بعد أن تعرضت لهزائم نفسية أصبحت تؤمن فقط بالعلم الذي جعلها تتقدم وخلصها من الجهل والهزائم ومن السلطة الدينية المتشددة، صح؟

- بالضبط.

- ثم إن المغالاة في اتباع العلم والمادة أوصلتهم إلى إنكار كل ما هو روحاني، صح؟

- الحمد لله أن ما أحاول شرحه وصل، كنت أخشى لو يكون الأمر معقدًا جدًّا.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

خرجت أوربا من عصور الظلام ومن هزائم الحروب الصليبية وهي في أشد حالات الإنكار لكل ما هو ديني؛ فبدأت اتجاهات لا دينية وموجات الحادية شديدة تتشكل في أوربا، ومع الثورة الصناعية وتطور المصانع والمعامل الطبية

وارتفاع متوسط الأعمار بسبب تطور صناعة الدواء والقدرة العلمية على اكتشاف الأمراض زاد الإيمان في العلم وظهرت الاتجاهات التي تقلل من التدين ومن فكرة الروحانية، خصوصًا أن نموذج الدين في أوربا كان مشوهًا ومغرقًا في الجهل والظلام؛ فكانت ردة الفعل في الاتجاه المعاكس قوية جدًّا.

ومع دخول عصر ما بعد الحداثة وإمكانية إيجاد مبرر علمي - ولو كان نظريًّا فقط - لعدم وجود خالق فكانت تلك فرصة انتشار الأفكار اللادينية والإلحاد، ويمكن اعتبار فكرة الديانة في أوربا حاليًّا هي في الأغلب ديانة اسمية وشعائرية أكثر منها عقيدة راسخة في حياة المجتمعات.

سألتني ليلى: ولكن أظن أن في المجتمعات الشرقية أيضًا يوجد تشوهات في العقائد والشرائع وتشدد وتطرف وانفلات.

هذا حقيقي وواقعي جدًّا، حدث الكثير من التشوهات والتطرف والانفلات والتحريف، لا شك في ذلك، من أكثر ما أصاب المجتمعات الشرقية من أمراض هو شيطنتهم للعلوم وبعدهم عن اتخاذ أدوات ومقتضيات التطور، واتباعهم لأفكار متطرفة وبالية ولهذا أسباب كثيرة.. ولكن لنرجع إلى أوربا، لنتخيل أن مجتمعًا لديه مبرر علمي وأخلاقي على عدم وجود إله، سوف ينشأ لديه أفكار مثل تغليب المصلحة على الأخلاق؛ وبالتالي فإن المُثل الأخلاقية ستتراجع لصالح النفعية، والفردانية والاستهلاكية والمادية بكل أشكالها!

ربما سينعدم الضمير؛ لأنه لا معنى للضمير في مجتمع لا ينتظر حسابًا ولا يؤمن بخالق رقيب على أفعاله، وسيكون من

المقبول ترويج أفكار منافية للفطرة الإنسانية، لأنه لا وجود لمفهوم القيم الروحانية، وسوف يكون القانون وحده هو الشيء الذي ربما يحفظ للمجتمع أمانه ونظامه، والقانون عادة يمكن التحايل عليه في الخفاء، والرادع الأخلاقي الذاتي لو انعدم، فالتحايل على كل شيء يصبح واردًا.. في مجتمع يفتقد ثقافة الوازع الداخلي، توقع كل شيء.

إذا نظرنا للعالم الآن فسنرى أن العالم ينقسم للشرق والغرب.

الغرب الحالي يمثله شمال العالم القديم بعد أن انضمت إليه القارة الجديدة أمريكا الشمالية، والشرق الحالي يمثله الشرق القديم وجنوب العالم القديم.

شرق روحاني وغرب مادي، شرق يمثل الاستمرار على معتقدات قديمة تحقق له التوازن النفسي، غير أن الشرق بالغ في الاعتماد على الجانب الروحاني وأهمل الجانب العلمي والمادي؛ فأصبح متأخرًا دنيويًّا ومتراجعًا وينتظر الغرب أن يمنحه أدوات الحياة، ينتظر من الغرب المتقدم أن يمنحه الطعام والدواء وأدوات الإنتاج والمعيشة؛ لأنه ظل يعيش في عصور قديمة ولم يتطور، لديه قيم عظيمة ومفاهيم تمنحه السلام والسكينة، وضمير ومراقبة، وليس لديه أي سعي للتطور والفلاح ولا أي قدرة على المنافسة في زمن لا يرحم من لا يستطيع اقتناص فرصته بالقوة.

وغرب أغمض عينه عن الروحانية ويؤمن بكل قيم المادية بما فيها من نفعية أنانية بلا ضمير يحكمها، يؤمن بقانون تحقيق المصلحة بصورة مطلقة ومبررة حتى لو استعبد كل أهل الأرض

ومهما كانت الوسيلة قذرة، فلا وجود لقيم روحانية تمنعه من ذلك.

حتى الآن لا يمكن اعتبار أن فلسفة الشرق والغرب في صراع، هما مختلفان فقط حتى الآن..

غير أن متغيرًا جديدًا في اللعبة كان ينمو في الخفاء، ذلك المتغير بدأ مع الثورة الصناعية وهو زيادة عدد سكان الأرض بعد ارتفاع متوسط الأعمار، ذلك المتغير قلب قواعد اللعبة كلها.. العالم الآن الشرق والغرب في صراع مع الموارد، في صراع مع الطعام والدواء والماء وربما الأكسجين.. العالم الآن في صراع مع البقاء!

إن اللعبة عادت للمربع القديم، لمرحلة رجل الكهف، من يسيطر على الكهوف ويجمع الطعام سينجو هو وقبيلته، وغريزة البقاء هي التي تتحدث وهي صاحبة الصوت الأعلى، ورجل الكهف القديم عاد يتربص بكل ما يمر أمام كهفه وجلس يرصد ويتابع.

الحرب التي بدأت بالنصل ثم المدفع والصاروخ والحقنة صارت الآن حرب فلسفة، والذي يستطيع فرض فلسفته على الآخر سيضمن زيادة المنتمين إلى الكهف الذي يمثله، سيضمن أن تكون قبيلته هي الأقوى؛ وبالتالي يضمن البقاء والسيطرة.

***

ولكن أين تذهب أرواحنا بعد الموت؟

يراودني سؤال متكرر يهمس في أذني من الداخل، من أنت؟

من أنا؟!

حقيقة كيف يمكن أن نصف أنفسنا؟ كيف نعرّف أنفسنا؟ وكيف نعرفها؟ من أنا؟ من أنت؟ من نحن؟

في إحدى المرات التي حللت فيها ضيفًا على مؤتمر وأثناء جلسة تعارف مع مجموعة من علماء الطب النفسي والفلاسفة، طلبت منا طبيبة نفسية أن يعرف كل منا نفسه.

في تلك اللحظة سقطت في كهف مظلم، هل أنا ذلك الشخص الذي يشغل منصبًا يمكن تعريفه باختصار؟ أم أنا ذلك الإنسان الذي يشعر بالخجل مع الغرباء؟ هل أنا الشخص الذي حصل على درجة علمية رفيعة؟ أم أنا الشخص الذي قرر العمل في مجال بعيد تمامًا عن درجته العلمية الرفيعة؟

ما هي هويتنا الحقيقة، أنا أخاف من الكلاب الضالة والقطط والحشرات ولا أخاف من الظلام والجن والقرين والغيبيات، ويشغلني باستمرار حنين دائم للماضي ورهبة كبيرة من المستقبل؟ هل يهم الآخرين معرفة ذلك؟ لأن تلك المخاوف والمشاعر هي هويتي الحقيقية، ليس المنصب ولا العمل ولا خبرتي الوظيفية، إنما تجاربي وأفكاري في الحياة هي هويتي.

في الأصل يولد الإنسان في صورة حيادية، يتعرف الجنين على صوت نبضات أمه فيتعلق بها ويهدأ بالقرب منها، في

السنوات الثلاث الأولى من عمر الأطفال لا يعرف الطفل معنى الذات، إنه يعرّف نفسه من خلال الأشياء والأشخاص التي حوله، حتى يبدأ في فهم أنه ذات منفصلة، تصبح لحظة فارقة في حياة الإنسان عندما يكتشف أن له ذات خاصة!

الأمر يصعب إدراكه، لكن يمكن محاولة اكتشافه بسؤال طفل ذو عامين عن لعبته، لعبة من هذه؟ وسيخبرك فورًا "لعبة أحمد" وإذا سألته عن والده من هذا سيخبرك "بابا أحمد" إن الطفل الذي يدعى أحمد لا يستطيع تعريف اللعبة وحدها ولا تعريف نفسه وحده وكذلك مع الأب، لأنه بصورة ما يتخيل أن الذاتين متصلتان، ذاته وذات اللعبة.. ذاته وذات الأب..

سيحتاج الأمر عدة شهور وربما سنوات حتى تتحول الإجابة من "لعبة أحمد" إلى "لُعبتي" في اللحظة التي سيكتشف فيها الطفل فكرة أنه ذات مستقلة ستتغير الإجابة وتصبح الأشياء تعرف من خلاله، سيدرك أنه شخص مستقل، ويمكن أن يمتلك الأشياء وأن يربط الأشخاص به.. هنا تتغير النظرة، ويصبح الطفل للمرة الأولى متحيزًا إلى ذاته.

نتحيز إلى ذواتنا، إلى أنفسنا؛ لأن تلك النفس التي تنشأ داخلنا تشكل سؤالًا يبدأ ولا ينتهي، وحتى الآن يحتار العلماء في فهم النفس، فسّروها بالوعي أحيانًا وبالضمير أحيانًا وبالعقل الباطن أحيانًا وباللاوعي أحيانًا.

تنشأ الحياة بارتباط الروح بالجسد، قوة الروح هي التي تمنح الجسد القدرة على الحياة، هي الطاقة التي تُنبت الحياة في ذلك الجسد المادي، وبخروج الروح من الجسد تنتهي الحياة،

وتلك الطاقة الروحية لا يُعرف حتى الآن ما هي وكيف تمنح الإنسان كل تلك القدرة وكأن تيارًا كهربائيًّا يسري في ماكينة فيجعلها تعمل.

ونتيجة لالتقاء الروح بالجسد تنشأ النفس، يولد ذلك السر المسمى "النفس" لغزًا كبيرًا نتج عنه كل الخير والجمال والحب والإبداع والتطور، ونتج عنه كل الشر والقتل والدماء والفساد.. لغز النفس الذي حير العلماء وحير أهل الإيمان..

تنشأ النفس داخلنا ويصبح لها بصمة تختلف في كل شيء عن أي نفس أخرى، قد تتشابه الأجساد والملامح، وتتشابه الأرواح لأن كل الأرواح من مصدر واحد، بينما الأنفس تتعدد بعدد الخلائق.

إن هذه النفس التي تنشأ في الإنسان هي طاقة التواصل، هي القدرة التي منحها الله لنا لنتصل بالكون ونتصل بالعالم وببعضنا وبالسماء وربما بالذين رحلوا عن الحياة!

وذلك التواصل هو ما يصنع لكل منا نسخة فريدة في الكون، نسخة تطورت من تواصله مع الكون ومع الآخرين ومع معارفه وتأملاته.

عندما بدأت أحكي عن النفس كنت متحمسًا جدًّا وبدا الشغف مسيطرًا عليّ، قالت السيدة رباب: لا تبدأ في الكلام عن أمور معقدة وكبيرة.. كان الرجل الثري وزوجته يمران بجوارنا ويسحبان حقيبتهما العملاقة، لاحظت أن الحقيبة يتساقط منها سائل خفيف لونه وردي يميل للحمرة، نظرت لي

ليلى وقالت: هل يخفيان جثة فعلًا في الحقيبة؟

انتفضت رباب من مقعدها واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم، ثم بدأت تتمتم بأذكار وأدعية، كانا مريبين، وأردت أن أعيد لرباب هدوءها فسألتها هل تعرفين كيف يعمل عالم النفس العجيب؟ ولم أنتظر إجابة منها، كنت أريد أن أشغلها عن التوتر والتفكير لتهدأ، رحت أتحدث.

لتفسير كيف يعمل عالم النفس، نحتاج تشريح عمل الإنسان كمخلوق متصل بالكون.. يمكن تسهيل ذلك بضرب مثال على هواتفنا المحمولة.. يتكون الهاتف من جهاز مادي ملموس مكون من المعادن والبلاستيك والزجاج، ولكي يعمل ذلك الجهاز يحتاج إلى قوتين ونظام تشغيل.. القوة الأولى هي الكهرباء والتي تضيف الحياة للهاتف وتجعله ينطق ويصدر أصواتًا ويلتقط صورًا، والقوة الثانية هي شبكة الاتصال والتي تجعله متصلًا بالعالم وبالآخرين ومتابع لكل ما يجري في الكون من خلال الإنترنت، ونظام التشغيل هو السيستم مثل (الأندرويد أو ios) ومجموعة البرامج التي تتحكم في إعدادات الهاتف ونظام تشغيله.. يمكن تخيل العديد من الأجهزة تعمل بنفس الطريقة.

جهاز مادي ملموس

برمجة/ نظام تشغيل

قوة كهربائية

الفارق الوحيد أن قوة الاتصال/ شبكة الاتصال تكون متاحة

في بعض الأجهزة والبعض لا .

وبدون قوة الاتصال في الهاتف يصبح الجهاز معزولًا ومنقطعًا ومحدود الوظائف، وبقوة الاتصال يصبح الهاتف نشطًا وفعالًا ويعمل على تحديث نفسه وتطوير برامجه واكتشاف العالم..

هكذا إذًا يمكن بالتشبيه فهم حياة الإنسان.. جسد مادي، وقوة روحية ضرورية لكي تدب الحياة في الجسد مثل قوة الكهرباء في الهاتف، والنفس أو قوة الاتصال مثل شبكة الهاتف والإنترنت، ونظام التشغيل وهو الوعي والذي يشمل التعلم والسلوك(15)

وتلك النفس التي بين أضلعنا وفي ثنايا قلوبنا وفي خلايا عقولنا هي ما يصلنا بالعالم..

وبالنفس يمكن أن نؤثر في الكون والآخرين ونتأثر بالكون والآخرين.. الأمر يشبه جدًّا اتصال الهاتف بالإنترنت، فمن خلال ذلك الاتصال يمكنك التأثير في الناس والتأثر بهم، ومن خلال ذلك الاتصال يمكنك التعلم والتفكر والتأمل والتعرف على إبداع النفوس الأخرى، ويمكنك تتبع الخبيث من العالم وتتبع الجميل في الكون، وكلما اخترت أن تتصل بالجمال كان محتوى جهازك ووعيك ونظام تشغيلك مشبعًا بالجمال والخير، وكلما اتصلت بالجانب المظلم كان محتوى الجهاز ونظام التشغيل بالمثل.. في هاتفك لو استخدمت الإنترنت للدخول إلى عالم من الفن والجمال والعلم والاكتشاف والتواصل الراقي مع الآخرين سيكون هاتفك مشبعًا بتلك المواد وكل

ذكرياتك وما تحتفظ به سيكون مما اتصلت به.. ولو دخلت إلى عالم التلصص والفساد والجموح سيكون هاتفك وذكرياتك وما حفظته عندك مشبعًا بما اتصلت به.. لو كانت رسائلك ومكالماتك هادئة ومستقيمة ستكون الذكريات المخزنة في أرشيف المحادثات طيبة، ولو كانت رسائلك ومكالماتك جدالية وإشكالية فإن الذكريات المخزنة في أرشيف المحادثات والصور ستحمل الصورة التي خزنتها.. هكذا إذًا تعمل طاقة الاتصال بالكون وتصبح صاحبة الدور الأكبر في حفظ النفس وحفظ الجسد وحفظ نظام التشغيل..

في القرآن كان للنفس توصيف دقيق، وفي هذه الآية كان سر من أسرار النفس في القرآن حيث قال الله تعالى: (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ)(14).

ويمكن الفهم من سياق الآية أن الله يتوفى الأنفس في حالتين.. الحالة الأولى حين موتها.. والحالة الثانية في المنام، وفي تلك الحالة الثانية عند النوم إذا مات الإنسان وهو نائم يمسك الله نفسه ولا ترجع إلى جسده، أما من لم يُكتب عليه الموت فتعود نفسه إلى الجسد لأجل مسمى، ثم أمرنا الله بالتفكر في ختام الآية..

وهذة الآية(13) بها من الأسرار ما يحتاج للتدبر إلى نهاية الزمان، ما فهمته منها أن الوفاة غير الموت، وأن الأنفس تتوفى بينما الأرواح تموت.. وأن الإنسان عندما تنفصل نفسه

عن جسده فهو متوفى إما بالنوم وإما بصورة أخرى لا نعرفها، ربما أن حالات الشرود والتأمل والتفكر والخشوع في الصلاة والتناجي والدعاء وغيرها من الحالات ربما تسمو فيها النفس وتنفصل عن الجسد ولو جزئيًّا.. يصبح الجسد في الأرض والنفس في مكان آخر.. عالم لا نعرف عنه شيئًا، عالم تلتقي فيه الأنفس وتتواصل، شبكة من الاتصالات الروحانية لم يتم اكتشافها بعد، لذلك عندما يتوفى الله الأنفس بالنوم حسب ما جاء في الآية يحدث شيئان، الأول أن النفس تتوفى في النوم ولكن يظل الإنسان حيًّا؛ لأن الروح لا زالت به، وقد اتفقنا أن الروح هي طاقة الحياة الرئيسية، والوفاة هنا هي انقطاع النفس عن الجسد وليس الروح.. والشيء الثاني أن النفس عندما يتوفاها الله وتنفصل عن الجسد فإنها تنتقل إلى بُعد آخر، عالم غير الذي نعرفه، وبُعد مختلف في الزمان والمكان والقوانين الفيزيائية وكل شيء، وهذا قد يفسر أن يغفو أحدنا دقائق فيحلم بأنه سافر وتزوج وأنجب ذرية؛ لأن قوانين الزمن في عالمنا تختلف عن قوانين الزمن في البعد الآخر الذي تسافر إليه النفس بالنوم، ثم إن عالم النفس أو البُعد والمكان الذي تنتقل إليه النفس عندما يتوفاها الله بالنوم أو الموت هو عالم متصل بالكون، وبالأكوان الروحانية، وبالله، وبالأنفس الأخرى التي تسافر إلى ذلك العالم بالوفاة.. وذلك قد يفسر لماذا نحلم في النوم بأشخاص فارقونا ونشعر أن نفوسنا التقت بهم ونعرف أخبارهم ويعرفون أخبارنا.. ولماذا يمكن تفسير الرؤي وتحققها، ولماذا عندما تتعلق نفوسنا بشيء أو تنشغل بشيء قد نلاقيه في عالم الأحلام، إن النفس وإن انفصلت عن الجسد

فإنها تذهب لذلك البُعد الفسيح من الاتصال مع عالم الغيب، عالم الأنفس، عالم الاتصال الكوني الإلهي الذي لا نعرفه ولا نعرف مسماه ووصفه وطبيعته.. تسافر النفس وتبقى الروح في الجسد لأنها الطاقة التي تمده بالحياة.. والعجيب في الآية الكريمة أن الله ذكر لنا ماذا يحدث عند الموت، فعند انفصال الروح عن الجسد تنتهي قدرة النفس على البقاء في ذلك الجسد المادي؛ لأن طاقة الحياة توقفت، لو استخدمنا نفس تشبيه الهاتف فإن غياب الطاقة الكهربائية عن جهاز الهاتف تعني بالضرورة انقطاع الاتصال، ولكن قد يغيب الاتصال عن الهاتف بانفصال الشبكة عن الجهاز، وفي الوقت نفسه يظل الهاتف يعمل بلا اتصال.. هكذا يمكن تشبيه حالة الموت وحالة النوم.. حالة الوفاة وحالة الموت.. انقطاع الاتصال عن الكون بغياب النفس أو انقطاع الحياة نفسها بغياب الروح!

ولكن أين تذهب نفوسنا بعد أن نموت؟

يمسكها الله في مكان لا نعرفه وبكيفية لا زالت غير مكشوفة لنا.. وربما أن في ذلك المكان، في عالم الغيب، تلتقي النفوس جميعًا، التي كُتب عليها الموت، وتلتقي معها نفوسنا عندما يتوفاها الله بالنوم، أو عندما نسمو عن حاجات الجسد المادية ونتوق للوصل مع الخالق والكون فتتحرر نفوسنا من شهوة الجسد وتكاد تقترب من السماء.

معجزة فعلًا قدرة القرآن الكريم في آية واحدة على كشف كم هائل من أسرار عالم الغيب..

وفي حكايات الأجداد والأهل والأصدقاء ما يؤنس القلب

في هذا الخصوص، أتخيل أن كل إنسان في الأغلب قابل أحد الأشخاص الذي رأى في منامه رؤية أو حلمًا بحبيب راحل عن حياتنا ثم بعد استيقاظه بساعات أو أيام وجد إشارة تفسر ما جاء في تلك الرؤية.. لقد رأيت وسمعت حكايات عدة من مدن وبلدان وثقافات عدة عن أشخاص حدث لهم ذلك ولمست الصدق في كلامهم، ولا يمكن تفسير الأحلام بفكرة العقل الباطن واللاوعي وحدها، فالذكريات والأفكار تؤثر في الأحلام، واتصال النفس في عالم الروح والغيب يأتي بالرؤى..

وفي كتب الأولين وحكايات وأخبار القدامى قصص حكاها أصحابها عن رؤى رأوها في النوم، فلما استيقظوا وجدوا ما رأوه في نومهم حادثًا ومتحققًا.. في حكايات الأولين قصة مشهورة عن رجل بكى أربعين يومًا على فراق والده فلما طال الشوق وانقطعت الأخبار وتملك الحزن من قلبه دعا الله لو يلتقي بوالده في الحلم فيعرف أخباره ويسكن الشوق باللقاء ولو في عالم الغيب، وقد كان الابن البار يزور قبر والده كل جمعة، ثم انشغل فانقطع عن الزيارة لفتره، فجاءه والده في النوم وقال له: لِمَ أطلت الغياب؟!

ويحكي رجل أنه ذهب لقبر أمه فلما سلم عليها دعا لها ولأهل القبور جميعًا، ثم رحل فنام فرأى جماعة من الناس يلقون عليه التحية مستبشرين وفرحين، فلما سألهم من أنتم قالوا نحن جيران أمك، لقد سررنا بدعائك لنا، وعندما استيقظ زارته أخته فقالت له إن أمهما جاءت لها في المنام فأخبرتها أنها في ونس مع جيرانها في القبور وأنهم ذهبوا يشكرونها لما

وجدوه من خير بسبب دعاء ابنها!

وفي قصص الأولين الكثير من الأخبار المتواترة عن أشخاص التقوا بأهلهم الراحلين في الأحلام، وقد أخبرهم هؤلاء الراحلون عن ديون عليهم تؤرقهم في قبورهم، فلما استيقظوا ذهبوا وسألوا عن أصحاب الدين فوجدوهم وعرفوا الدين وسددوه!

وفي الآية (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(12) معنى مهم يشرح كيف تلتقي الأنفس في عالم الغيب والروح، فالأنفس التي تتوفى بالنوم والأنفس التي توفت بانقضاء أجلها، كلاهما يلتقي في عالم الغيب، تتزاور وتتلاقى وتتساءل.. ثم يرسل الله الأنفس التي لم ينقضِ أجلها ويمسك عنده التي كُتب عليها الموت أي التي سبق ومات أصحابها.. وهذا قد يخبرنا أننا نموت وتظل الأنفس في عالم آخر!

في حكاياتنا عن الروح والنفس والحياة والموت، نحن نتحدث عن عالم غيبي، عالم مختلف عن عالم الشهادة أو الحياة التي نعيشها ونشهدها، ومن الغريب محاولة تفسير عالم الروح والغيب بالعلم والمنطق..

عندما يرحل عنا أحباؤنا، يتوقف الزمن، صوت مكتوم يحاول الصراخ من أعماق صدورنا وعندما يقترب من الخروج يختنق.. يضيق علينا صدرنا وتضيق الأرض كما وصف القرآن.. عندما يرحل أحد الأهل أو الأحباب شيء ما ينقص على الأرض وكأن جزءًا من الخير في هذا الكون قد تلاشى! وكأن نجمًا في

السماء قد انطفأ.

ولا أعرف دواء لألم ووحشة الفقد، يرحل عنا الأحباب وتغلق كل الأبواب الموصلة إليهم، غير أن عزاءنا الوحيد أن الأنفس تلتقي في عالم آخر..

ولو كان لقاء أهل الأرض والحياة بالتواجد، فلقاء أهل السماء بالوجد!

عندما مات أبي قضيت الليلة الأولى في غفلة وكأني في غيبوبة تمشي على قدمين، وفي اليوم التالي تخيلت أن الشمس لم تشرق.. رغم كل معرفتي وصداقتي وحبه له وقفت أسأل نفسي، هل عرفت ذلك الرجل حقًّا؟!

هل اكتشفته بحقيقته الكاملة أم أن الحياة أخذته مني غفلة قبل أن أعرفه.. نحن نسوّف الأيام واللقاءات والونس ونقول يومًا ما سوف نلتقي، يومًا ما سوف نأكل معًا، يومًا ما سوف أخبرك عن شيء يهمني وأسمع منك شيئًا يهمك.. ثم يأتي يوم ما ولا نكون معًا!

في لحظة ينتهي كل الوصل، كنت أود لو يعود أبي ولو لحظة واحدة، أحتضنه بقوة وأشبع منه غير أن الحياة فرصة لا تتكرر والموت حقيقة لا تُنكر.

وعندما ماتت أمي رأيت عمري يسقط بين قدميَّ، وكأن الطفل الصغير الذي كان يعرّف نفسه من خلال لعبته ويقول "لعبة أحمد" ذلك الطفل الذي كبر واكتشف هويته وعرف أنه ذات مستقلة، وكأنه فقد هويته وذاته وفقد حتى قدرته على

تعريف نفسه وتعريف الأشياء.

تمر أيام الفقد عصيبة حتى تلتقي أرواحنا بهم في المنامات، نراهم فرحين ومطمئنين وزال عنهم تعب الدنيا ومرضها وهموم الأيام وانشغال البال وتدبير الحال، جلست أمي على كرسي متحرك لعشر سنوات، وفي ليلتها الأولى في القبر، رأيتها في رؤية تجري وتلعب كطفلة صغيرة، وكأنها كانت تنتظر الذهاب إلى مستقرها الأبدي الجميل.. يخبروننا عن الموت قصصًا مخيفة وصعبة وموحشة، ويحكون لنا عن سكرات الموت وآلامها.. ونرجو ألا تكون السكرة إلا دوخة بسيطة، يخبروننا عن الموت أنه المجهول والمرعب ونرى في شاشات هواتفنا ڤيديوهات لأشخاص ماتوا وهم يصلون في المسجد في طمأنينة وهدوء.. بلا ألم أو صراخ.

لماذا نرى الموت بكل تلك الوحشة والظلام! إذا كان الموت هو البوابة إلى عالم قد يوصلنا للجنة، هو البوابة التي توصلنا إلى خالق رحيم يعلم ما عانيناه من ألم وحزن ويعدنا بالرحمة والرأفة والتعويض.

لقد كبر الطفل الذي كان يحاول تعريف الأشياء وتعريف نفسه واكتشاف هويته، كبر وعرف أن له روحًا ونفسًا وجسدًا ووعيًا، وأنه كلما اختار للنفس طريقتها في التواصل مع الكون، كلما هيأ لحياته الطمأنينة وهيأ لموته الهدوء ولمستقره الآخر السلام.

من أكثر ما شغل بالي عند رحيل أبي هي أفكاره وذكرياته وضحكاته.. أين تذهب خواطره وأفكاره وأحلامه التي لم

تتحقق؟! أين ذهب كل ذلك العلم وكل تلك الثقافة؟! وأين تذهب الذكريات التي طالما حكاها لنا بشغف كبير؟! كنت أفتقده بشدة، وكان قلبي يعتصر وكنت غير مطمئن، إلى أن رأيته في منامي فاحتضنني بحنان وعمق حتى تشبعت منه ضلوعي ثم رحل.. بعدها كنت أراه هو وأمي يجلسان لا ينقطع عنهما الضحك ولا النور والرضا.

سلامًا على أرواح من سبقونا ونفوسهم، وسلامًا على نفوسنا المتعبة وأرواحنا المثقلة.. إلى أن نلتقي جميعًا في دار المستقر.

***

فلسفة الحب

وقفت لأفرد ساقيَّ، أشعر بتوتر وتيبس لو ظلت قدماي ثابتتين، وأردت الرجوع إلى مكاني في عربة رقم ٢، لكني تذكرت ذلك الطفل الذي هبط من السماء وتخيلته يعبث في وجنتي، ويسكب العصير على ملابسي فجلست مرة أخرى.. عجيب أن يقف شخص في مثل سني عاجزًا أمام طفل صغير!

كان عامل البوفيه يتلصص علينا أنا وليلى ورباب، يتشاغل بالزبائن ثم ينظر إلينا خلسة، أردت أن أنهي فضوله المتطفل فناديته.

- تحب تشرب قهوة حضرتك؟

قلت له حاسمًا ودون تفكير بل أريد أن تحضر قهوة لحفيدتي هنا، اجعلها قهوة مظبوط.

وتعاملت ليلى بتلقائية شديدة، قالت له كلمة واحدة "سادة" ثم كررتها على كلمتين "قهوة سادة".

بعد رحيله اقتربت مني وهمست "شكرًا لك، كنت مرتابة من نظراته".

سألتها عن اسمها نظرت لي باستغراب شديد وقالت هل نسيت فعلًا أم تمارس معي حيلة عقلية، سأخبرك للمرة الأخيرة اسمي "ليلى".

- هل تعرفين، كان لي ابنة اسمها ليلى، ربما هي في مثل سنك الآن! كم عمرك؟

- فلنعتبره عشرين، لن أخبرك مرة ثانية.

- تحبين الرد بعبارات قصيرة.

- أترك لك مساحتك لتكمل الإجابات القصيرة بالخيال.

- الخيال أمر شائك جدًّا، لا تعبثي مع الخيال.. استخدميه ولكن بحذر.

اقترب عامل البوفيه حاملًا فنجانًا أبيض بلا نقوش، يعلوه خط ذهبي مستدير بطول الفنجان، وضعه أمام ليلى وصب القهوة ثم رحل، لمحت رباب من بعيد وقد ذهبت قرب المطبخ وكانت تضع حبة دواء في كوب شاي، لم أنتبه بدقة ماذا كانت تفعل، لكنها عادت ومعها كوبين من الشاي مررت أحدهما لي، ولم أطلب شايًا وكان من المريب أن تذهب بنفسها لتعده بدلًا من أن تطلبه كما نفعل.. حاولت تجاهل الموقف وعدت أكمل حديثي مع ليلى.

قلت لها: ولكني توقعت أن تكوني أصغر من سن العشرين، ملامحك تدل على سن أصغر؟

- هكذا كان يقول خطيبي السابق، كان يقول إني طفلة وإني غبية، هل تعتقد أني غبية فعلًا؟

ضحكت بشدة من طريقتها في قول ذلك، كانت طفولية وبريئة وساخرة، وسألتها من منكم الذي أنهى العلاقة؟

تشاغلت بخصلة من شعرها كانت تقع أمام عينها، أخذت تلعب فيها بأصابعها ولم ترد، كنت قد تعلمت من الحياة

ضرورة ألا نضغط على أحد ليتكلم، أفتح له الباب وأنتظر، لو أحب الدخول سيدخل، لو لم يحب فلا جدوى من محاولات جذبه بالقوة للداخل؛ لأنه حتى لو دخل مضغوطًا سيتحول الأمر إلى سجن!

سألتها: هل كنتِ ذبابة في حياته أم فراشة؟

- ماذا تقصد؟

في علاقتنا بالناس نحن نشبه الكون، هناك أشخاص وجودهم كالشمس تشعر معهم بالدفء في وقت ولا تتحملهم في وقت آخر، أشخاص وجودهم حامٍ، قد يلهب جسدك ويحرق وجهك وعينك لو أطلت البقاء ولم تأخذ حذرك، يمنحونك النور والحرارة ثم يختفون فجأة ويتركونك في ظلام وبرد..

وأشخاص وجودهم كالقمر لا يقدمون الدفء ولا الضياء، وجودهم حالم وهادئ ورومانسي، يؤنسون الليالي عندما يغيب الجميع، وفي الصباح لا تجدهم!

وهناك أشخاص يشبهون اليوم بشمسه وقمره، وهؤلاء نادرون.

الكون يخبرنا عن الكثير من العلاقات ويرشدنا إلى عالم واسع من التأمل، لو ننتبه.

هناك الشخص الذبابة والشخص الفراشة، من أهم مشاكل العلاقات في هذا الزمن هو أن يتحول الشخص إلى ذبابة، يظل الشخص يدور حول رأسنا طوال الوقت، لا تعرف سبب حقيقي لوجوده، نحن لا نعرف لماذا يقترب الذباب بدون الدخول

في تفاصيل بيولوچية، والأزمة الأقرب هي الزن والطنين المتواصل، تقترب الذبابة منك وتبدأ في الزن وإصدار صوتها الموتر والمزعج، وجود مستفز، حتى عندما تنام فإن الذبابة توقظك بدون سبب، تقف على وجهك، وتزن بجوار أذنك، تدخل في أنفك وتدور حولك حتى تستيقظ.

هكذا يفعل بعض الأشخاص مع أحبائهم، خاصة في زمن التواصل العجيب الذي نحن فيه، يدور الشخص حولك في كل مكان، يلاحقك في مواقع وشبكات التواصل، يحاصرك بالرسائل والاتصالات والتعليقات، يتتبع خطواتك، يتصل بك قبل الفجر ويرسل لك في السادسة صباحًا ويحول حياتك إلى سجن.. ثم إنه يلاحقك بالطلبات والأسئلة والاستنتاجات المتخيلة.

يجلس الشخص الذبابة ويتخيل سيناريو ما في عقله ثم يحقق معك بخصوصه وكأنك متهم.. يفتش في أشيائك وهاتفك ولا يتوقف عن الزن والملاحقة، شخص يستنشق كل الأوكسجين في غرفتك لتبدأ في الاختناق!

أما الشخص الفراشة فيعرف معنى الوجود اللين البسيط المطمئن، تقترب الفراشات منا بحيث نراها ولا ننزعج من وجودها، تقف في الجوار، تحرك جناحيها الجميلين وهي واقفة على ستارة الغرفة أو أحد الحوائط، تدفعك الفراشة إلى الاقتراب منها، هي تعلن عن وجودها بهدوء وثبات وثقة، على عكس الذبابة التي تعلن عن وجودها بشكل مقزز..

لا تصدر الفراشات أي أصوات مزعجة، وبالتأكيد لن تجد

فراشة تلاحقك أثناء نومك وتقف على وجهك وأنفك..

الفرق بين الشخص الفراشة والشخص الذبابة أن النوع الثاني تجده يلاحقك ويلاحق أشياءك، يقف على القمامة ويقتات عليها ثم يأتي مباشرة ليقف على طعامك!

أما النوع الأول فحضوره هادئ ولطيف وغيابه بدون إزعاج ولا يقترب من مساحاتك الآمنة بل يترك لك مساحتك ويجذبك إلى مساحته بهدوء وثبات.

أخذت ليلى رشفة من فنجان القهوة بعصبية ثم سألتني:

- لماذا تتهمني بأني كنت ذبابة في حياته؟

- لم أتهمك، لقد سألتك ليس أكثر.

- ولماذا وجهت كلامك لي وليس له.

- لأنه ليس موجودًا الآن، هل قلت لك إنه كان لي ابنة في مثل سنك؟ كانت تتصرف مثلك، أتحدث معها في موضوع فتترك فكرته وتتخيل سيناريو يسبب لها الضيق!

- إذًا ترى أني غبية، كما يرى هو.

نظرت لها وضحكت، وقلت ربما هو على حق.

- هل تعتقد فعلًا أني غبية؟!

- ربما هو على حق أن يتركك لو تتصرفين بطفولة هكذا دائمًا، لكن لا يجب أن تعتقدي أنك غبية لأن أحدهم وصفك بذلك؟

- قل لي، لو كان موجودًا هنا هل كنت ستسأله لو كان ذبابة في حياتي أم فراشة؟

- بالتأكيد، وربما كنت سأسأله هل كان ذكر نحل في حياتك أم ذكر عنكبوت؟

- ترد عليَّ ردودًا عجيبة!

كما أخبرتك من قبل في حياتنا نشبه الكون أحيانًا، الشائع في عالم الحشرات أن الإناث تصنع البيوت وتبني الممالك وتقتل الذكور، لا مكان للذكور في الخلية أو المملكة، حتى إن وظيفة ذكر النحل تقتصر على تلقيح الملكة ثم ينتهي دوره وتنتهي دورة حياته، والمقصود هنا أن الهدف من حياته ينتهي بمجرد تلقيح الملكة، وفي المرات النادرة جدًّا التي تنجو فيها ذكور النحل من الموت بعد تلقيح الملكة مباشرة، تفقد الهدف من حياتها فتعود للخلية خائبة وتطاردها باقي الإناث حتى تسقط صريعة.

الرحلة التي بدأت بالحياة ثم القوة والانجذاب للأنثى ثم الطيران خلفها، حتى يتساقط كل الذكور الضعيفة ويبقى القوي فقط الذي يلقح الملكة ويموت كسيرًا موتة شنيعة بعد انقضاء لحظات من اللذة تخبرنا عن شكل الحياة في ظل اللذة، الحياة في ظل تتبع الشهوة فقط..

الأمر نفسه يحدث مع العنكبوت، حيث تبني أنثى العنكبوت البيت، ويأتي الذكر ليتزوجها، غير أنه يلوذ بالفرار لو استطاع بمجرد انتهاء التزاوج؛ لأنه لو مكث للحظة ستقتله الأنثى

وتحتفظ به غذاء لأطفالها أحيانًا، وربما تقتله وترميه خارج الشباك التي نسجتها.

يدفع كل ذكر يبحث عن اللذة فقط عمره ثمنًا لتلك اللحظة التي تمرق كالبرق.. مساكين ذكور الحشرات لا يعرفون معنى الونس والعِشرة ودفء البيت.. تقتلهم أحلامهم عن المتعة والشهوة.

- أنهت ليلى فنجان القهوة وقالت: بدأت الصورة تضح ولكن أتحدث معك عن المشاعر وتكلمني عن الحشرات؟!

أكلمك عن الكون، الحشرات هي مجرد مثال، نحن جزء من نسيج الكون، كل الأشياء مرتبطة بشكل مذهل ومنفصلة بصورة تامة.. تلك هي معجزة الخلق الكبيرة أن تكون كل الأشياء مترابطة ومنفصلة..

المشاعر بقدر ما هي حقيقية لكن أحيانًا كثيرة تكون خادعة، وكأن في بعض الأحيان يعمل العقل في اتجاه مخادع! نحن نقول إننا نحب، تبرد أطراف أصابعنا وتتعرق أجسادنا عندما نقع في الحب، ويكسو وجوهنا تورد الخجل وحُمرة الحماس.. عندما نحب نشعر بأن السماء أوسع ونكتشف الكون بشكل جديد، نلاحظ النجوم في السماء بعد أن كنا نمر كل ليلة في نفس الطرقات ولا ننتبه للسماء!

ما الذي يصنع ذلك الطوفان من العاطفة؟ ولماذا نتلعثم وتتغير ملامحنا ونشعر بفوران داخل أجسادنا ونضبط أنفسنا متلبسين بابتسامة بلهاء عندما نستقبل رسالة من شخص

نحبه؟!

يمكن تفسير الأمر بطرق مختلفة، إحدى النظريات تتحدث عن كيمياء المشاعر، تتحكم في مشاعرنا عدد كبير من الهرمونات والمواد الكيميائية التي تفرز في أجسادنا، من العجيب أن الكيمياء المتسببة في الخوف مثلًا تتشابه مع كيمياء الحب في جزء! كلاهما يرتفع فيه الدوبامين.

لذلك نجد رواجًا لمحتوى الرعب في الكتب والأفلام، لأن هناك تشابهًا بين الحب والخوف في الإثارة(11).

تتعامل عقولنا مع الكيمياء بشكل معجز، لذلك يمكن تفسير جانب كبير من المشاعر عن طريق الكيمياء في أجسادنا، نتعرض لمواقف تفسرها عقولنا وتحللها ثم ترسل إشارات للروابط والمستقبلات العصبية التي تستقبل وتنتج الهرمونات والمكونات الكيميائية فتبدأ مرحلة سطوة المشاعر وسيطرتها، نشعر بالخوف أو الاهتمام والتقدير، أو الاحتقار والتقليل، نشعر بالغضب أو الفرح والحزن أو الدهشة والخجل..

والسؤال المهم هنا، هل نشعر حقًّا بالحب؟ أم هي ثورة الكيمياء في أجسادنا؟ هل نحب بعقولنا أم بمشاعرنا وقلوبنا؟

إذا سلمنا لما وصل إليه العلم بالتأثير الكيميائي على المشاعر وبالتالي على السلوك، فيمكننا تخيل أن عقولنا هي التي تحب، العقل هو الذي يعطي إشارة بزيادة الدوبامين والسيروتونين وباقي الهرمونات والمركبات في أجسادنا، فنشعر بلذة الحب وسعادة التقارب ونشوة الوصل.. نشعر

بالاشتياق بعد انتهاء محادثة مع من نحب، نشعر بالوحشة عندما يبتعد! لأن وجودنا مع من نحب يجعل الكيمياء متفجرة بجرعات تشعرنا بالسعادة طوال فترة وجودهم، وعندما يبتعدون يتوقف ذلك الطوفان من الكيمياء فتشتاق أجسادنا للذة السعادة، نحتاج لجرعة جديدة من الكيمياء!

ولهذا ربما عندما يتركنا الذين أحببناهم نشعر بحزن شديد؛ لأن كيمياء الحب والسعادة بدأت في الانسحاب من أجسادنا وتغيرت المواد المسيطرة!

لو كانت عقولنا هي التي تسبب كل تلك السعادة والنشوة واللذة عن طريق الكيمياء فإن القلوب ليس لها دخل بالمشاعر إذًا!

ثم لماذا تقف عقولنا في أغلب الأحيان حائط صد بيننا وبين من نحب، نشعر بالألفة مع شخص ويخبرنا عقلنا أن ذلك الشخص مخادع أو أن ذلك الشخص غير مناسب، ترتفع علامات الإنذار وأضواء المرور الحمراء عند بعض الأشخاص ويخبرنا العقل بقراره الفاصل برفض ذلك الشخص بالرغم من أن نفس العقل هو الذي أفرز هرمونات الانجذاب والسعادة بوجود ذلك الشخص!

إذًا تستجيب عقولنا إلى المؤثرات وتنشط الكيمياء داخل عقولنا فنشعر بكل تلك اللذة، وللمشاعر واللذة سطوة وقوة أكبر من المنطق في بداية الأمر، تلك السطوة والقوة تغلب الإشارات المنطقية التي يطلقها العقل، خاصة لو كان الأشخاص الذين أحببناهم لديهم خبرة في التعامل مع المواقف

وقدرة على تسويق الذات وكاريزما، في تلك الحالة تصبح الرؤية غائمة وضبابية ونسقط في شَرَك العاطفة، نقع في سيل من العاطفة سرعان ما يتحول إلى طوفان لا يوقفه شيء، ولا يمكن مواجهة إعصار من الشعور إلا بالمنطق، ذلك المنطق الذي يغلق إشارة المرور ويخبرنا أن نهدأ ونعيد التفكير ولا نستسلم لسيطرة الكيمياء.

لو فهمنا تأثير الكيمياء على مشاعرنا يمكننا تفسير خفوت الحب بعد فترة من الارتباط، الأمر يشبه الإدمان، عندما يتعرض الإنسان لجرعة كيميائية منشطة، تؤثر الكيمياء في الأعصاب ويشعر الإنسان بلذة ونشوة لحظية، كلما زادت الجرعة كلما نشطت تلك السعادة الزائفة، وكلما زاد الشعور باللذة والمتعة.. في لحظة معينة يتشبع الجهاز العصبي من تلك الجرعات ويصبح المدمن في حاجة لجرعات أكبر وأكبر الأمر يشبه تأثير الشوق والوحشة على جهازنا العصبي.. كلما زاد الونس والقرب كلما اشتقنا للمزيد، ولو تدخلت كيمياء الجسد وصار القرب جسديًّا زاد التعلق وزادت الحاجة إلى جرعة جديدة من الكيمياء!

ينتهي الحال بالمدمن بالتحول إلى عبد للجرعة الكيميائية ويفقد اتزانه تمامًا، وفي الأغلب تنتهي حياته بجرعة زائدة من المخدر الكيميائي.

في حالات كثيرة ينتهي حال المحب بعبودية حالة الحب ويرهن حياته بها سنوات طويلة! إنه هنا متعلق بالحالة أكثر من الشخص، متعلق بحالة الحب ومتعته أكثر من الشخص نفسه

الذي ربما يرى فيه اختلافًا كبيرًا عن ما يريده العقل ويجد إنذارات عدة تحذره من ذلك الشخص.. لكن الانصياع لحالة الحب هو الذي يتحدث تمامًا مثل الإدمان!

كان موعد أدوية الضغط قد أتى وطلبت كوبًا من الماء وقطعة من الكيك، لا أحب تناول دواء الضغط على معدة فارغة، سألت ليلى لو تسمح لي بدعوتها لقطعة كيك، ووافقت على شرط أن أوافق أن تدفع هي الحساب لكلينا وقالت رباب فكرة الكيك ممتازة، لتشرب معه الشاي، ثم تركتنا وقالت إنها ستعود لمقعدها في عربة القطار..

سألتني ليلى في استغراب: هل تقول إن كل ما أشعر به هو مجرد كيمياء تسري في مخي وجهازي العصبي؟! هل أنت مقتنع أن مخاوفنا ومشاعرنا وإحباطنا واكتئابنا والحزن الذي نشعر به والفرحة التي تملأ قلوبنا هي مجرد كيمياء وإفرازات، هل تقول إن الحب إدمان مثل المخدرات؟ وأني يمكن إذا تناولت دواءً كيميائيًّا أشعر بنفس مشاعر الحب أو الخوف أو السعادة؟ هل تصدق ذلك حقًّا؟!

كنت أبتلع كلام ليلى مع أدوية الضغط.. سكت للحظات أنظر إلى عينيها المدهوشتين وترقبها لإجابتي، وأشفقت عليها من الحقيقة، ماذا لو قرأت تفسيرات بعض العلماء عن تشبع المخ تمامًا خلال ١٨ شهرًا إلى ٤ سنوات من كيمياء اللذة والسعادة التي تحدث مع دخول شخص جديد لحياتنا، تنتهي كل تلك الحالة الجميلة وتبدأ مرحلة مختلفة تعتمد على سلوكنا معًا وإحساس بالونس والود بدلًا من لهيب الحب

والشوق.. لذلك تكون كل البدايات مدهشة، بداية أي شيء، بداية الحب، بداية الأكل، بداية اللعب، بداية عمل جديد، وبداية كل مرحلة وتجربة..

إن عمر اللذة قصير جدًّا، لو تخيلنا عمر الوجبة التي نتناولها سنكتشف أنه لا يتجاوز الساعة في الأغلب، في البداية نكون متلهفين للأكل وتتحرك أمعاؤنا وتكاد تنطق، وأثناء الأكل نشعر بلذة ومتعة الطعم والشبع، العجيب أنه قبل النهاية نشعر بالتخمة وبمجرد الانتهاء من الطعام نفقد اللذة تمامًا، ونبحث عن التحلية والشاي والسمر وأحيانًا يئن القولون من تخمة الأكل ونندم على شهوة الشراهة!

لذة الأكل ساعة، لذة الضحك ربما ساعات، لذة الحب شهور، لذة الجنس أوقات، لذة النجاح أيام، لذة الفرح لحظات، كل لذة مؤقتة، وكل اطمئنان دائم.. تخبرنا الحياة أن عمر المتعة قصير وعمر الاطمئنان أبدي!

كنت أقطع قطعة الكيك وأشرد في نظرات ليلى المترقبة، نظرت إليها وقلت لها، هل أحببتِ طعم الكيك؟

- نعم.

- وهل أشعرك ذلك بالسعادة؟

- إلى حد ما نعم.

- هل تتخيلين كم تدوم تلك السعادة؟

سكتت قليلًا ثم قالت: ربما لبعض الوقت.

- ولو قدمت لك قطعة الكيك تلك نفسها وأنت في منتصف مبنى يتعرض للاحتراق، هل تشعرين بالسعادة حينها؟

- لا يبدو منطقيًّا أن يقدم لي أحد طعامًا ونحن نحترق!

- لو افترضنا حدوث ذلك، ماذا سيكون شعورك؟

- لن آكلها، في الأغلب سأهرب من المكان المحترق، وربما لو أكلتها لن أشعر بأي شيء؛ لأني سأكون متوترة وخائفة.

هكذا تعمل المشاعر والكيمياء.. نتعرض لموقف، فتتحفز لدينا المشاعر، يحللها المخ ويبدأ بعد ذلك دور الكيمياء في التعامل مع المشاعر، تساهم الكيمياء في زيادة المشاعر وسيطرتها أو تغيير الإحساس والحد منه أو في ارتباك المشاعر وتشتتها.. الأمر مركب جدًّا ومتداخل جدًّا، الشيء الذي يسبب لنا السعادة، هو نفسه قد لا يسبب أي شيء في موقف مختلف، وهو نفسه قد يسبب التعاسة في موقف آخر.. إدراكنا لتلك الحقيقة ربما يجعلنا ننتبه لصوت العقل عندما تسيطر الغريزة والكيمياء.. ونفس الإدراك يجعلنا نخفض صوت العقل نسبيًّا عندما يسيطر التوتر والتفكير الزائد.. في كل الأحوال نحتاج للتوازن.. إن ما دفع ذكر العنكبوت والنحل للموت هو سيطرة السعي وراء اللذة والشهوة فقط. الموت في سبيل المتعة!

تنهدت ليلى.. حركت أصابعها على الطاولة، عبثت في شعرها وصلحته، ثم بدأت تنقر بأصابعها على الطاولة، وأخرجت أنا جراب أدوات تنظيف الغليون، رحت أضع تلك

الإبرة الطويلة في الغليون لأسلك ممر الدخان.. في القريب سيتسبب ذلك الدخان بشكل ما في تصلب وانسداد شرايين القلب وأحتاج لأداة مماثلة لتسليك تلك الشرايين.. قلت لليلى: هل تعرفين، أدخن الغليون رغم معرفتي بخطورة ما ينتج عنه، عجيب أمر المزاج، هل ترين كيف يفعل بنا؟

نظرت نحوي بنظرة لوم وغيظ وسألتني: ولماذا تدخنه طالما تعرف أن الموت والتدخين يسيران في طريق واحد؟

- لأني أحبه.

- تحب الموت؟

- بل أحب التدخين، وعلى الإنسان أن يدفع ضريبة الأشياء الضارة التي أحبها وسمح لنفسه بالتعلق بها.

- تدفع الثمن من عمرك؟ ثمن باهظ!

- لأني أحمق.

استغربت ليلى من ردي المباشر بلا أي مراوغة، ولماذا أراوغ وتلك هي الحقيقة، فقالت: هكذا الحب إذًا يجعلنا حمقى ومغفلين! هذا ما تريد قوله من البداية، تحاول ألا تجعلني أفكر في خطيبي السابق.

بالعكس، بل يجب أن تفكري في الموضوع لتدركي حقيقة أن الأمر لو كان ممكنًا لاستمر، ولو هناك فرصة للرجوع فستكون، نحن يفوتنا كل يوم اختيارات عدة، هل تعرفين أن اختيارك لأي شيء يعني في الوقت نفسه تخليكي عن شيء

آخر!

- وكيف أعرف أن ما أشعر به مشاعر حقيقية وليست كيمياء ومستقبلات عصبية وهرمونات؟

- في النهاية يمكن اعتبار المشاعر حقيقية ومخادعة في الوقت نفسه، أخبرتك أن الأمر مركب جدًّا، الكيمياء لن تقفز في عقولنا من اللاشيء، هناك محفز يحدث، مؤثر ما، وهنا يبدأ عمل الكيمياء، لكن علينا أن ندرك ألاعيب العقل معنا لنعرف كيف نتحكم في مشاعرنا ولا نتركها تسيطر علينا.

في اللحظة التي تنتهي فيها سيطرة المشاعر الجارفة وتوازن العاطفة مع المنطق، واتزان العقل بعواطفه وأفكاره يحدث السحر.. يمكن تسمية ذلك السحر بعدة مسميات، في القدم أطلقوا على التناغم بين الزوج والزوجة العِشرة الطيبة، وأحيانًا المودة، لأن الود أفعال والحب انفعال.. عندما أحبك أنفعل بمشاعري معك، وبعد أن يخفت ذلك الحب تظهر حقيقة الأشياء وحقيقة سلوكي وأخلاقي إما ود وإما جفاء.. إما حسن سلوك وحسن صحبة أو سوء معاملة وقلة أصل..

ذلك السحر أسموه أيضًا مسميات مثل الرضا والونس والقناعة وغيرها من المعاني الهادئة والتي تستمر ربما لآخر العمر، أما الانفعالات الشعورية الجارفة فهي لذة قصيرة الأمد.

كنت قد فرغت من تنظيف الغليون، وحشوته بالتبغ، أشعلت عود ثقاب وسحبت نفسًا عميقًا.. وقلت لليلى سأنهي تدخين

وأرجع للمقعد في عربة القطار، لم أكن مرتاحًا جدًّا في كرسي بوفيه القطار، وقلت لنفسي أرجع للمقعد لربما أرى عيني روبي مرة أخرى.

وقالت ليلى: لقد جعلت رأسي تدور في مليون اتجاه، حكيت لك عن علاقتي المنتهية لأعرف رأيك، والآن أنا أفكر في ألف سؤال بدون أجوبة!

أخذت نفسًا آخر من الغليون، وأخرجته ببطء وهدوء وأخبرتها أنه لا يوجد دومًا إجابات نموذجية ومعلبة عن أسئلتنا، خاصة في الأمور المتعلقة بالمشاعر والعلاقات.. ما أردت قوله إننا أحيانًا نشعر أننا نحب شخصًا ما لسبب ما، ونترك أنفسنا فريسة التعلق ثم عندما يبتعد نتخيل أن الحياة انتهت، ذلك وهم زائف، لأن قصص كل المحبين تخبرنا حقيقة أكيدة أنه مر وقت وانتهى ذلك التعلق بصورة ما.. في النهاية حتى لو عشنا معًا عمرنا كله سيموت أحدنا، ومع الوقت سنضطر للتخلص من أنين التعلق ونكمل الحياة؛ لأنه لا معنى من البقاء في حنين حزين وألم دائم وانتظار بلا عودة!

لا أريد أن أكون قاسيًا في التعامل مع حقيقة ما نشعر به، ولكن ألم نحب منازلنا القديمة؟ ثم اضطررنا لتركها والتعلق بمنازل جديدة؟ ألم نحب أصدقاء في الطفولة ثم غرّبتنا الدنيا وصرنا نقابلهم صدفة ولا نعرف ماذا نقول؟! أو نقابلهم على فترات متباعدة وكأننا كنا معًا بالأمس ثم ننشغل لشهور وربما سنين إلى أن نلتقي بهم مجددًا، هؤلاء الذين كنا نقضي معهم الأيام والليالي بلا توقف!

ألم نتعلق بألعابنا في الصغر ثم فارقناها وأحببنا ألعابًا أخرى؟! ألم نتعلق بأشخاص كانوا مثلًا أعلى لنا واكتشفنا حقائق مرعبة عنهم فسقطوا من حياتنا وأصبحت ذكرياتنا عنهم قاتمة؟! ألم نتعلق بملابس وأشياء وذكريات نحنّ إليها أحيانًا لكنها لم تعد تشكل شيئًا في أيامنا؟!

نحن نقدر المشاعر والأشخاص في زمانهم ووفقًا لسياق وجودهم، لكن لا يجب أن يتحول هؤلاء الأشخاص والمشاعر جسرًا نعبر عليه فوق الماء وإلا لو سقط لغلفنا الغرق ودمرتنا الأمواج.. علينا أن نتعامل معهم كبيت دافئ نحبه، له نافذة مطلة على العالم، فلو ذهبوا عنا فسنجد العالم أمامنا والمنازل كثيرة والدفء ينبع من قلوبنا..

أردت قول إن السعادة غير اللذة، وأننا في طريقنا للبحث عن الحب أحيانًا نتخيل الحب هو السعادة الكبرى، لكن الواقع أن الحب هو اللذة المؤقتة، لكن الشعور بالسعادة شعور أهدأ وأعمق وأطول عمرًا، والسؤال المهم الذي يجب أن نسأله لأنفسنا عن الحب، هل عرفنا أنفسنا على حقيقتها؟

أزمة كبيرة أن نحب قبل أن نكتشف أنفسنا ونكتشف من نحب.. قبل أن نعرف حقيقة ما نحن عليه، وحقيقة ما نسعى إليه وما نتمناه وما نفهمه عن أنفسنا واحتياجاتنا.. لأننا عندما نحب قبل اكتشاف أنفسنا، نقع في فخ المشاعر ثم نتفاجأ بعد ذلك بالعقل يئن!

وعندما نحب قبل أن نكتشف من نحبهم نسمح لأنفسنا بالتورط في مشاعر تسيطر علينا ثم نكتشف أمورًا نرفضها،

نكتشف حقائق مؤرقة بعد التورط في المشاعر فيصبح الرجوع موترًا وحزينًا والاستمرار مربكًا ومرهقًا، ويتحول ذلك المنتصف الذي نحن فيه إلى ورطة وجحيم مستعر..

قال أحد الأجداد: ما بال القلب يدق بلا حساب ثم يشتكي إذا دق العقل بالفكر والهم عند الحساب!

***

وكيف نصبر على ما لم نحط به علمًا؟!

في كرسي القطار سألتني ليلى ولكن لماذا يحدث لنا كل هذا؟

سألتها: وما هو كل هذا؟

- كل الذي يحدث من ألم وحزن وأسى؟

- ذلك سؤال يحتاج إلى رحلة جديدة وقد أوشكنا على الوصول، أستطيع أن أجيبك على سؤال أبسط.

- سأسألك سؤالًا مرتبطًا بنفس الموضوع، إذا كانت أعمالنا مكتوبة علينا فلماذا نحاسب عليها؟! هل نفعل ما نريده، أم ما هو مكتوب علينا؟

- حسب ما أفهم فإن كليهما يحدث.

- ولكن كيف؟ إذا كانت الأمور مكتوبة فكيف نختارها بإرادتنا؟

- سأحاول تفسير الأمر بمثال.. هل لو رأيتك تعبرين الطريق وكان هناك على بعد كيلو متر إشارة مرور وأنا أعرف مكانها فكتبت في ورقة أن ليلى ستمر خلال دقائق على إشارة مرور، ثم مررتِ من الإشارة، هل ذلك اختيارك أم أنه المكتوب؟

- كلاهما، اختياري والمكتوب في الورقة لأنك تعلم بوجود الإشارة.

- ربما يفسر لك ذلك تصور عن القدر، ولكن لنصعب

الأمر أكثر، فلنفترض أني كتبت في الورقة أنك ستعبرين من الإشارة، لكنك اخترتِ التوقف قبلها وغيّرتي طريقك لاتجاه آخر، ما رأيك؟ هنا سيخالف اختيارك المكتوب.

- فعلًا، كيف يعمل القدر في تلك الحالة؟

- ماذا لو سافرت في الزمن للمستقبل وعرفت الطريق الذي ستمرين به، ثم كتبت ذلك؟ هل سيكون اختيارك أم المكتوب؟

- سيكون كلاهما.

- هذه بالضبط طريقة عمل القدر.

- ولكن لا يمكن السفر عبر الزمن.

- هذا ما نعرفه نحن عن الزمن.. لأننا نفكر في الزمن بالطريقة التي عرفناها عن الزمن، حتى الآن لا يمكن السفر عبر الزمن، ولكن من يعرف في المستقبل ماذا يمكن أن يحدث، بطريقة ما يوجد نظريات تفسر أنه يمكن السفر فيزيائيًّا عبر الزمن، لكن لا يوجد أدوات متاحة لذلك الآن.. إن الزمن الذي نعيشه هو الماضي، هل تعرفين أنه في تصور بعض الفلاسفة فإنه لا يوجد حاضر؟ إن الحاضر خدعة في نظرهم، وكل ما نعيشه هو الماضي.

- ولكن كيف ذلك؟

التقطت الغليون ووضعته في فمي، وسألت ليلى هل عندما وضعت الغليون الآن في فمي كان في الحاضر أم الماضي؟

- الحاضر طبعًا.

- كلا، قبل أن أحرك يدي، وعندمي اتخذت القرار كانت تلك الحركة التي سوف أفعلها هي المستقبل، وعندما حركت يدي إلى فمي كانت كل مسافة تقطعها يدي تصبح في الماضي.

- لا أفهمك.

- أنا لو مشيت في اتجاهك، فإن كل خطوة نحوك تتحول إلى ماضٍ حدث وانتهى، خطوة تمت، حدثت وانتهى زمنها، وكل خطوة قادمة هي المستقبل.. نحن نعيش الماضي.

- ولكن عملية المشي نفسها هي الحاضر.

- نسميها هكذا مجازًا، ولكن في الحقيقة كل خطوة خطوتها أصبحت ماضيًا وكل خطوة لم تأتِ هي مستقبل.

- وماذا لو وقفت، أليس ذلك حاضرًا؟

- وقفت، خلاص، وقفت وانتهينا، أصبح الوقوف ماضيًا.

- عقلي بدأ يزداد حرارته، هناك أسلاك كهربائية تصنع بريقًا الآن داخل رأسي.

يمكن تلخيص الأمر وتبسيطه بأن الزمن يسري علينا بطريقة غير ما نفهمها، للزمن فلسفته الخاصة، والذي خلق الزمن، الله، لا يسري عليه الزمن، على الأقل لا نعرف ما هو الزمن بالنسبة للخالق.

لقد أثبت أينشتاين أن الأجسام لو تحركت بسرعة الضوء فإن الزمن سيتوقف، اكتشفنا ذلك من حوالي مائة عام فقط أو أكثر بقليل.. ذلك يعني أن الزمن الذي نعيشه هو مكشوف عند الله

ربما قبل أن تبدأ الحياة، كل ما نفعله الآن هو ماضٍ بالنسبة للخالق، وبالتالي يمكن إدراك أن أفعالنا مكتوبة..

ما معنى أن تصرفاتنا مكتوبة واختياراتنا مكتوبة؟

يعني أنها مسجلة، ولا يعني أنها مفروضة علينا، يعني أنها موثقة، ولا يعني أنها مملاة علينا.. موثقة لأن الله سبق علمه علمنا وسبق وجوده وجودنا وبالتالي عرف قبل أن نعرف، وعرف قبل أن نوجد لأن حاضرنا ماضٍ عنده ومستقبلنا ماضٍ عنده.. يعني أن أفعالنا مكتوبة لأن الله عرفها، وهي مكشوفة عنده، ولأنها مكشوفة ومعروفة تم تسجيلها مسبقًا فأصبحت مكتوبة وواجبة الحدوث، لكن نحن من اخترناها.. بالضبط كما شبهت لك مثال السفر للمستقبل ومعرفة ماذا سيحدث لك ثم تسجيله وكتابته.. أصبحت موثقة ومسجلة لكن نحن الذين اخترناها.. هل تعرفين ما هي الأمور التي لم نختْرها؟

- ما هي؟

- نحن لا نختار أقدارنا التي كتبها الله علينا وليس أقدارنا التي كُتبت لنا.

- وما الفارق، لقد زاد الغموض.

- الأقدار التي كتبها الله علينا مثل أعمارنا، لون بشرتنا وهيئتنا الجسمانية، الأرزاق المادية والأرزاق المعنوية، الصحة والمرض.. هناك أقدار ليس لنا تدخل فيها، لم يختر أحد أن يولد سليمًا أو مريضًا، غنيًّا أو فقيرًا، ذو عين سوداء أو زرقاء.. تلك أمور مفروضة علينا، لا تعيبنا ولا تميزنا..

هي مجرد صفة.. أما اختياراتنا في الحياة تلك هي ما يجعلنا ما نحن عليه، اختياراتنا في الحياة هي حقيقة هويتنا، وتلك الاختيارات هي التي تكتب لنا، هي التي يعرفها الله مسبقًا وتُكتب في سجل أعمالنا، وهي ما يميز كل شخص ويحاسب عليه كل شخص.

سكتت ليلى، لم تنطق، سألتها هل يبدو الأمر صعبًا؟

- يبدو مرهقًا ومربكًا، لكني بدأت أفهم.

هل تعرفين، منحنا الله القدرة على الخيال، وأغلب الأمور التي تخيلها الإنسان استطاع أن يحققها، تخيل أن يطير فصنع الطائرة والصاروخ وصعد للفضاء، تخيل أن يتصل بأقاربه وأصدقائه في قارة بعيدة ويحدثهم فابتكر الهاتف، وهكذا كلما تخيل الإنسان شيئًا يبدو مستحيلًا مر وقت ولو طويل واستطاع أن يفعله.

لقد ابتكر الإنسان أطرافا صناعية ومفاصل صناعية وعدسات للعيون وزرع خلايا جذعية وعدل الچينات وراثيًّا وزرع كبد إنسان في إنسان آخر! وطالما تخيل الإنسان أنه يسافر عبر الزمن فقد يأتي يوم ولو بعد ألف عام ويفعلها، لو حصل ذلك يمكن تخيل كيف يكشف الزمن ما سيحدث لنا ولو سجلناه وكتبناه أصبح مكتوبًا علينا، لكن نحن من اخترنا أفعالنا وليس لأنها مكتوبة..

للقدر تصاريف كثيرة مختلفة، كشفها لنا القرآن في قصة سيدنا موسى مع الخضر، أزمة القدر مع الإنسان أن القدر

سابق العلم ومتحكم في المصائر بشكل لا يتماشى مع قدرة العقل على الإدراك.. لذلك يقف الإنسان متسائلًا: لماذا يحدث ذلك؟

في قصة موسى والخضر كان الخضر هو ممثلًا للقدر، كان نائبًا عن القدر في صورة بشرية، أرسله الله ليعلم سيدنا موسى ويعلمنا كيف يتصرف القدر، وقد كشف الله لنا ثلاثة تصاريف فقط للقدر، ثلاث حالات تساعدنا على الاطمئنان والفهم، وحجب عنا الله باقي التصاريف..

في القصة المشهورة طلب موسى من الخضر أن يصطحبه ليتعلم منه.. وكانت الإجابة مباشرة وواضحة وصادمة }قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا{(10) وهذه الإجابة تلخص علاقة الإنسان الذي يمثله موسى النبي بعلاقة القدر الذي يمثله الخضر، تظل علاقة الإنسان بالقدر بها محاولات الإنسان للفهم واستغراب الإنسان مما يحدث، وتعجب البشر من أقدارهم؛ لأن حقيقة الأمور محجوبة عنهم، ويظل القدر شيئًا يصعب الصبر عليه؛ لأن الإنسان ليس له قدرة الصبر على ما حُجب عنه!

في القصة الأولى(9) كان تصاريف القدر هو خرق السفينة، الظاهر أنه أذى أو ضرر أو شر، يمكن تسمية خرق السفينة لعدة مسميات كلها سلبية، والحقيقة أنه لولا ذلك الخرق لأخذ الملك سفينتهم، فذلك الخرق كان بمثابة النجاة.. وتلك الحكمة من تصرف القدر سيدركها أصحاب السفينة بعد فترة وجيزة جدًّا، سيكتشفون أن ذلك الضرر الذي لحق بسفينتهم هو

سبب نجاتهم، وربما عندما تتكشف لهم الحكمة من تصريف القدر سيشكرون الله ويفرحون بذلك الخرق، ربما سيكون ذلك التصرف، ذلك الضرر، ذلك الخرق هو أجمل ما حدث لهم في حياتهم؛ لأنه حافظ لهم على مصدر رزقهم الوحيد وأنقذهم من ضرر وأذى أكبر كان سيحدث لولا ذلك الخرق.

إنها الطريقة الأولى التي يعمل بها القدر، ولابد أنها حدثت لكل إنسان، لأن القدر متدرج، لا يمكن أن يبدأ بخطوة كبيرة قبل أن يبدأ معك بخطوة أولى تجربها بنفسك، حتى تثق في تصرفاته، وتثق في من دبر القدر وخلق لك النجاة من باطن الخوف.. ومن تدابير القدر أن يكون لكل منا سفينته في الحياة، وتلك السفينة هي التي تبحر بك في بحر الأيام وأمواج التخبطات والابتلاءات وعواصف الأفكار والمشاعر، ثم يحدث أن تُخرق سفينتك ويكتب الله لك النجاة لتتعلم الثقة فيه وحسن الاعتماد عليه وضرورة السعي في الحياة وعدم الوقوف عند كل أزمة موقف اليائس.

قد تكون سفينتك عملك، وقد تكون سفينتك عائلتك، وقد تكون سفينتك أفكارك، لكل منا سفينة مُبتلى فيها.

المهم أن الطريقة الأولى التي يتعامل بها القدر معنا أن يكشف لنا الحكمة من الأزمة بعد فترة ما، فنتعلم ونفهم.

والطريقة الثانية التي يعمل بها القدر حدثت في القصة الثانية لموسى والخضر(8)، لما قتل الغلام، وهي الدرجة الثانية من القدر، الأكثر إيلامًا وأكثر قسوة في ظاهر الأمر.. ومن عجائب القصة أن يتم قتل غلام صغير، لا زال الطفل بريئًا لم يرتكب

أي جرم أو أي ذنب، نموذج للبراءة، وأن يموت مقتولًا نموذج لقسوة الأمر الواقع، قسوته وغلظته وشدته.. والأكثر قسوة أن أهل الطفل لن يعرفوا الحكمة، إن الحكمة مما حدث لن تنكشف هنا، بل إنها ستموت مع موت الطفل نفسه، رغم وجود حكمة ورحمة.

لننظر في أعماق الموضوع سنكتشف أن الطفل لو عاش وكبر كان سيتحول إلى طاغية، يرهق أهله وربما قريته، ثم سيحاسب على أعماله الشنيعة بعد موته، فجاء موته في الصغر قبل أن يتحول إلى طاغية أنقذه من كل الذنوب ودفع به إلى الجنة، وموته وهو طفل أنقذ أهله من عذاب طغيانه في الكبر، ثم أبدلهم الله طفلًا آخر أكثر رحمة بهما وبنفسه.. لكن أم الطفل لا تعرف كل ذلك وستظل في حسرة وألم على طفلها المقتول!

تلك درجة أعلى من تصرفات القدر، درس أصعب، وخرق أكبر للسفينة، وحكمة مخفية، درجة من القدر لا ينفع معها إلا التسليم التام لاختيارات الخالق والرضا بما قدره.

أما الدرجة الثالثة فهي في القصة الأخيرة(7)، قصة الجدار الذي أقامه الخضر فحفظ للأطفال كنزهما، وهي درجة لطيفة من درجات التصرف، قدر يحدث لنا في الماضي بسبب صلاح أفعالنا فينجينا في الحاضر، وربما لا نعرف عنه شيئًا، إنه مصرف من مصارف اللطف، ألطاف الله التي تحدث لنا طوال الوقت دون أن ندري.

كنت قد أطلت الحديث وتحشرج صوتي وخفت لو أطلت الحديث على تلك الشابة الحائرة بأفكاري المبعثرة، سكت

وفي بالي ألف فكرة، لكن ليلى كان فضولها أكبر من الموقف كله، وسألتني عن باقي تصاريف القدر، إذا كان الله كشف لنا ثلاث درجات من تصاريف القدر فما هي الطرق الأخرى؟

قلت لها إنها محجوبة عنا، تمامًا كما حُجب عن أهل الغلام لماذا مات مقتولًا في طفولته، وتمامًا كما حجب عن الطفلين اليتيمين ما حدث لهم في الماضي فحفظ لهما كنزهما.. إن الدرجة الأولى فقط هي التي يُكشف فيها الحكمة للجميع؛ حتى نتعلم أن اختيارات الله نافعة وصالحة وأجمل من توقعاتنا وأنها تنجينا، حتى لو كان ظاهرها العذاب والألم، حتى لو كان المكشوف منها هو خرق السفينة، وهذا هو النوع الأول الذي يكشف فيه الحكمة، أما الأنواع الأخرى فعلينا أن نتعلم فيها الثقة التي اكتشفناها في الدرجة الأولي ولا نبدأ باللهث وراء كشف الحكمة.

- ولكن لماذا لا تكشف لنا الحكمة في كل مرة؟

- لأننا سنتحول في تلك الحالة من عبيد لله، إلى عبيد للفهم، سيتحول الإيمان بالله إلى الإيمان بكشف الحكمة، وحقيقة الإيمان أن نؤمن بالغيب، وإلا لتحول الأمر إلى كشف حساب دائم مع الله، وتحولت علاقتنا بالخالق إلى مساءلة لماذا فعلت كذا؟! ولماذا حدث كذا؟! وهذا عكس الإيمان.

- ولكن أنت قلت إننا نختار أفعالنا وهي ليست مكتوبة علينا، فكيف يتصرف معنا القدر ويؤثر في أفعالنا؟ المفروض أن نتصرف نحن ولا يتصرف القدر!

- قلت إن هناك أمورًا لا نختارها، مثل أعمارنا، مثل الأمراض التي تصيبنا، مثل ما يحدث لنا، تلك هي تصرفات القدر، ما يحدث لنا دون تدخل منا، وطالما حدثت لنا بدون اختيار فلن نحاسب عليها، كان سؤالك الأول كيف نحاسب على أمور مكتوبة علينا، وقد حاولت شرح ذلك عن طريق فكرة نسبية الزمن، وكيف يعمل القدر بأن الزمن مكشوف له بطريقة غير التي نعرفها، هل لاحظتِ أن شخصية الخضر متجاوزة للزمان والمكان؟ رجل يعرف تفكير الملك الذي يأخذ السفن ويعرف مستقبل الغلام، ويعرف مكان الكنز، إن شخصية الخضر جاءت ترمز لنا عن القدر وقدرته على كشف الزمان والمكان والمعرفة، لأن الطريقة التي يسري بها الزمان والعلم والبُعد الذي تقع فيه تصاريف الأمور، والقدرة اللا محدودة للخالق القدير متجاوزة للحدود والأبعاد التي نعرفها في عالمنا.

قلت إن ما يحدث لنا لا نحاسب عليه، أما إرادتنا الحرة في التصرف فهي قائمة، وهي الأفعال التي نحاسب عليها؛ لأنها باختيارنا.. أفعالنا مكتوبة وموثقة ومسجلة لأنها ستحدث، لأن الله يعرف المستقبل، لكن أفعالنا باختيارنا، الفكرة كلها في كشف المستقبل لذلك هي مكتوبة، والأقدار التي تحدث لنا لا نحاسب عليها، وهي أيضًا مكتوبة لأنها ستحدث لنا، وتلك الأقدار التي تحدث لنا تعلمنا وتنجينا من أزمات وتعلمنا الثقة في حكمة الله، ونحن بين ما يحدث باختيارنا وما يحدث لنا دون اختيارنا نتحرك ونسعى ونحيا وننسجم مع الكون في نسيج محكم. وبين ما يحدث لنا وما يحدث منا نسير في مراد

الله.

***

فلسفة التطور

جمعت جراب الغليون وسماعتي وكتبي وأعدتهم لحقيبة السفر، ورأيت عيني روبي وهي تقرأ في كتاب، سألتها عن الكتاب الذي تقرأه وقالت إنه كتاب نسائي ساخر.. قلت لها ما الدواء الذي وضعتيه في الشاي؟ نظرت لي بارتباك وأغلقت كتابها.. قالت دواء الزهايمر(6) وأشفقت عليها جدًّا أن تصاب بذلك المرض اللعين وهي في تلك السن، لا زالت تبدو صغيرة، سألتها كم عمرك، كانت قد بدأت تجمع حقائبها وتستعد، وقالت: لا تُسأل امرأة عن سنها.. أخبرني أنت عن سنك.

قلت لها سني أم عمري.

- رجعنا للفلسفة.. وما الفرق بينهما؟

- سني هو عدد السنوات التي عشتها، أما عمري فهو أثر السنوات وإحساسي بتلك السنوات.. هناك سنة بعشرة، وسنة باثنتين وسنة بشهر.. السنة التي مات فيها أبي بعشرة سنين والسنة التي ماتت فيها أمي بعمري كله.. والسنة التي أحببت فيها زوجتي مرت كشهر.

- ماذا هل تقصد أن زوجتك ليس لها أثر في حياتك لدرجة أن تمر سنة كشهر.

- أقصد أنها كانت سنة جميلة جدًّا والأيام الحلوة تمر سريعًا، يخطفها منا الزمن، أما السنة التي جاءت فيها ابنتي للحياة

فلا يمكن تقديرها بالزمن.. أحتاج لما هو أكثر من الزمن لأقدرها به.

- يا سيدي على حبك لابنتك، ثم وجهت كلامها لليلى هل سمعتِ ذلك؟

وضحكوا، ضحكت هي وليلى وجمعوا حقائبهم وانتظرنا قرب الوصول.. نظرت نحو النافذة، كان القطار يتحرك ببطء وقد اقترب من المدينة وظهرت مبانيها القديمة وطرقاتها الضيقة.. نظرت نحو الطرقات وكان صوت خافت لأغنية أجنبية ينبعث من هاتف ليلى، سألتها ماذا تسمعين، وأجابت أنها لم تختر، لكن التطبيق اختار لها ما تسمعه حسب تفضيلاتها السابقة، لم أستغرب ولم أحبذ الفكرة.. شردت مع الموسيقى ونافذة القطار ومشهد الطرقات والسماء والغيم.

ابتكر الإنسان الحاسوب والإنترنت والهاتف الذكي ثم تحولت أغلب الأجهزة حولنا إلى أجهزة ذكية، في السابق كنا في عصر الزراعة والتجارة ثم عصر الصناعة ثم عصر التكنولوچيا، ولما وصلت التكنولوچيا إلى قمتها، وقف العالم وتخيل أن كل شيء قد اكتمل فأسموه عصر السرعة، ثم كان الإنترنت فتغير شكل العالم بثورة الاتصالات.

نعيش الآن عصرًا يتصل فيه كل شيء بكل شيء، وربما في السنوات القادمة سيتنبأ الذكاء الصناعي(5) بما تفضله على الإفطار اليوم فيطلبه لك ويرسل سيارتك الذكية بدون سائق لتوصل ابنك للمدرسة ويشغل ماكينة الإسبريسو لعمل فنجان قهوة ويرد على بريدك الإلكتروني ويحدد لك المواعيد ويجهز

لك الحمام في آخر اليوم والذي سيكون مجهزًا للعمل وفقًا للأنظمة الذكية في البيت الذكي.

بمرور الوقت سوف يتحول البشر إلى أفراد يعيشون مع الأجهزة الذكية والذكاء الصناعي والـbig data، وستختفي جلسات السمر والعشرة، ستنتهي جولات التسوق وتتحول إلى قائمة طلبات مسجلة عن طريق المساعد الشخصي الذكي على هاتفك أو نظام التشغيل المدمج الخاص بك!

وسيتفاجأ الجميع من سرعة التحول الذي سيشاهده الإنسان، فأبناء الجيل الواحد قد يفاجئون بأن الزمن تجاوزهم وأن العالم أصبح في مكان بعيد تمامًا عنهم!

نعيش عصر "إنترنت الأشياء" وعصر الذكاء الصناعي.. عندما ابتكر الإنسان العقل الإلكتروني ابتكر معه صراعًا محتومًا مع الآلة؛ لأن الآلة لديها معادلات منطقية ورياضية لا تقبل المرونة ولا تقبل المساومة.. السيستم والذكاء الصناعي يعرف كيف يكسبك في ماتش شطرنج، لكنه لا يعرف كيف يصافحك بعد خسارتك وبقدر شخصك، ولو وضعنا ذلك الذكاء في روبوت وبرمجناه على مصافحتك بعد الخسارة، فسوف تكون المصافحة آلية لأن البرمجة تفرض عليه ذلك، لكن ذلك الروبوت لن يشعر بالتقدير الشخصي الذي تستحقه.

في القريب قد يتعلم الذكاء الصناعي كتابة الكود البرمجي، وتطوير الكود الخاص به، وبثغرة بسيطة في نظم التشغيل ربما يتدخل الذكاء في إعادة برمجة نفسه وهنا ربما تكون بداية أشياء لا أحب تخيلها.. أقل ما يمكن حدوثه هو السيطرة

المالية على أنظمة البنوك.. وبحكم خبرة الحياة فإن أغلب الثغرات تكون بفعل فاعل له مصلحة ثم ينقلب السحر على الساحر!

المخطط العالمي الذي نتوقعه الآن هو رقمنة الأموال وإنهاء العمل بالنقود والتحول إلى الأرصدة في البنوك ثم الأرصدة الإلكترونية والأموال الرقمية، وحينما يتحقق ذلك يصبح الإنسان وكل ما ينتجه وما يقدمه وكل خبراته ودراسته وحياته مجرد بيانات في أحد الأنظمة الإلكترونية، يتحول الإنسان إلى **record** مجرد مجموعة من النقاط مسجلة في جدول ويتم الإنفاق من تلك النقاط، ماذا قد يحدث لو تعطل السيستم؟!

في طفولتي كنت أستغرب فكرة أن الله يرى ويسمع كل البشر في نفس الوقت، كنت أتساءل عن الفكرة غير المنطقية بالنسبة لعقل طفل صغير، كيف يعرف تحركاتنا كلنا ويرى طرقنا كلنا، وفي السابعة من عمري عندما سمعت قصة المعراج(4) استغربت من فكرة كيف لكائن لا نعرفه، القدرة على الطيران منذ أكثر من ألف عام والخروج للغلاف الجوي وللفضاء.. وكنت أعرف المقولة المشهورة "ربنا عرفوه بالعقل" غير أني عندما كبرت أدركت أن العقل وحده لا يمكنه إدراك قدرة الله أو إدراك صفة الخالق.. إن العقل البشري احتاج لعدة آلاف من السنين، ليستطيع فقط الطيران وإضاءة المنازل بالكهرباء وصنع شبكة من الاتصالات المحدودة وشبكة للمعلومات.. كل ما وصل إليه البشر في كل تلك الآلاف من السنين كان رحلة لتطور العقل وتطور الابتكار

والتفكير، لذلك من الصعب تخيل أن العقل وحده يمكنه إدراك حقيقة الخالق، لأننا لو احتجنا كل آلاف السنين تلك فقط لنضيء منازلنا بالكهرباء ونتصل ببعضنا عبر الإنترنت ونسافر للكواكب داخل مجموعتنا الشمسية بالكاد، فربما نحتاج مليارات السنين لنستطيع إدراك حقيقة خالق هذا الكون.

الأمر أشبه بأن تطلب من طفل في الصف الأول والذي لا زال يتعلم الهجاء ومبادئ الحساب أن يحل معادلة رياضية معقدة تدرس لطلبة الدكتوراه! ثم تقول للطفل إن المعادلة يمكن حلها بالعقل!

منحنا الله العقل لنفكر، بل أمرنا بالتفكير والتدبر، وبعد كل تلك السنين من العلوم كان العلم يكشف لنا طريقًا جديدًا لنستدل على قدرة الله، ابتكار مثل الـGPS (نظام تحديد المواقع الجغرافية والملاحة) جعل الإنسان في الألفية الثانية من التقويم المتعارف عليه، يستطيع تتبع كل الناس ورؤية أماكنهم في نفس الوقت! وإذا كان الإنسان قادرًا على ذلك الآن بعد كل تلك السنين فالله قادر على ذلك قبل أن يبدأ الزمان، الأمر نفسه في قصة المعراج، فالعقل الذي يرفضها لأنه لا أساس علمي لها، هو نفس العقل الذي بعد عدد من السنوات من حدوث المعراج سيبتكر طريقة للطيران.. وهكذا دائمًا يحتاج الإنسان كل مرة ربما ألف سنة ليصل إلى نقطة في بحر القدرة والعلم، ولكن الله مطلق القدرة منذ الأزل.

كنا في السابق نستغرب فكرة كيف يرانا الله جميعنا في نفس الوقت.. فلما ابتكر الإنسان الخرائط الإلكترونية

والأقمار الصناعية فهمنا، وكنا نستغرب فكرة المعراج فلما اخترع الإنسان الطائرة والصاروخ أدركنا أنه ممكن، وفي كل مرة سنضع فيها الإيمان والغيبيات في مواجهة العلم سنتحاج ألف عام جديد لنكتشف قدرة جديدة وعلمًا جديدًا يكشف لنا طريقًا للاسترشاد.. لذلك ربما من الأجمل والأنسب والأكثر منطقية ألا نقيس الأمور الغيبية بميزان العلم ولا نقيس الأمور العلمية بميزان الغيبيات..

والاستغراب من هؤلاء الذين يقفون موقف العداء من العلم، وينكرون كل ما يأتي به العلم لكي ينصروا تصوراتهم القديمة عن الدين.. ونفس الاستغراب من هؤلاء الذين ينكرون كل ما هو روحاني وإيماني ويصفونه بالجهل والتخلف لأنه غير علمي!

والواقع أنه لا يمكن مقارنة الغيب بالواقع، لا يمكن مقارنة الإيمان بالعلوم التجريبية، لا يمكن مقارنة الروحانية بالمادية.. الأمر يشبه أن تقارن التفاح بمعجون الأسنان!

وكما لا يمكن مقارنتهم فلا داعي من الحرب المعلنة وغير المعلنة بين أنصار العلم وأنصار الإيمان.. لأن الحياة لا تستقيم إلا بهما معًا..

في كتاب "لو جاء نوح" للكاتب أنيس منصور، يحكي عن رائد فضاء روسي، عندما صعد إلى الفضاء للمرة الأولى رجع وقال صعدت إلى فوق ولم أجد الله! إذا كان هذا هو تصور عالم فضاء عن الإيمان وعن الإله فهو تصور ساذج لأننا لو فكرنا بنفس الطريقة فسنسأل أنفسنا ماذا قدمت علوم مثل الرياضيات والفيزياء والأحياء للأخلاق، وقضايا العنف ضد

المرأة واستعباد الأطفال في مزارع الكاكاو، ما هو موقف الكيمياء والفيزياء وقوانين الميكانيكا من القضايا الأخلاقية والتمييز والعنصرية والعدالة.. وكلا الطريقتين تحتمل مغالطات منطقية؛ لأننا نحمّل الأشياء ما لا يتسق مع طبيعتها ووظيفتها..

والسؤال المهم لماذا يبدأ الصراع دومًا بين الأصوليين في الجانبين، الجانب الروحاني المتشدد الذي يرى ضرورة العودة لكل ما هو قديم في الدين وعدم الانصياع إلى تأويلات العلم، والتعامل مع مجتمع العلماء بحالة من الإنكار والتجاهل والتهميش وأحيانًا وصمهم بالانحلال.. والجانب العلماني المتشدد الذي يزدري أهل الإيمان ويرى أنهم متخلفون عن ركب الحضارة ومتنطعون ومتسولون للدواء والتكنولوچيا والاختراعات ويقوم بتحقيرهم ورفضهم ووصمهم بالجهل..

في رأيي إن الصراع القائم ناتج عن قصور في الرؤية، وغياب للفهم.. لو نظرنا للجانب الروحاني المعارض للعلم والتطور سنجد نموذجًا لإنسان درويش يعيش اليوم بلا تخطيط للمستقبل ويستهلك المواد التي تقدم له لأنه لا يمتلك القدرة على الخيال والتفكير في مواد ومنتجات جديدة، يستهلك كل ما يقدم له وكأن الحياة تحولت إلى علف والإنسان تحول إلى معلوف ينتظر الذبح، لا خيال ولا ابتكار ولا معنى حقيقي لإقامة حضارة، ويكون كل غايته هو تحقيق انتصار روحاني وذم كل من هو مخالف لفكرته غير أن الدواء والغذاء والابتكارات والمواد وأدوات الإنتاج كلها التي يستهلكها لو توقف إمدادها

من أهل المادة لتوقفت حياته وتعطلت، تلك الحياة نفسها التي يحتاج إلى استمرارها ليستطيع ممارسة طقوسه وشعائره الروحانية.

على الجانب الآخر ماذا قدم الإنسان المادي الذي يؤمن بالعلم وحده ويرفض كل ما هو روحاني وإيماني؟! ما هو نموذج الإنسان المادي الذي طور كل أدوات العلم وآمن بالطبيعة كمنظم للكون؟ هو نموذج لإنسان فرداني، منعزل عن بيئته، يعظم المصلحة على حساب الأخلاق، ويتحول إلى الاستهلاك الآلي لكل ما يمكن شراؤه وهضمه في ماكينة الحياة، إنسان يعبد المصلحة، ويقدس المجهول، ويجلس في آخر يومه فلا يعرف كيف ينتهي به الحال بعد الموت، ولذلك فلا رادع لتصرفاته لأن الأخلاق لم يصبح لها ضرورة في عالم لا يؤمن بوجود إله رقيب يحاسبه في نهاية المطاف، تسقط الأخلاق ويعلو القانون، والقانون ينظم سريان الأمور ولا يربي ولا يزكي النفس..

لقد طغى إنسان المادة في البحث عن اللذة فأصبحت حياته مثل معدته كلما سعى لإشباعها أصابه التخمة ثم دفعه الشره إلى المزيد من التخمة فرأينا كل أشكال الانحرافات والتجارة في الانحرافات وتقنين الانحراف.. وطغى إنسان الإيمان في التسلف وإنكار مقتضيات التحضر والتطور والتعلم وتحول طلب العلم الذي هو فريضة إلى طلب علم إيماني فقط وشرعي فقط وغرق أهل الشرق البعيد في ثقافات الطاقة والهالة والتأمل والروحانية المزعومة وترك كل أسباب إقامة الحياة

فتحولت حياته إلى متسول يقتات أسباب استمرار حياته من غيره!(3)

يبدأ الأمر بغاية نبيلة ثم يتحول الأمر إلى وسيلة للانتصار الشخصي، يبدأ العلم كغاية نبيلة للبحث والاكتشاف ثم يتحول إلى وسيلة لإثبات أن كل ما هو غير ذلك جاهل ومتخلف، ويتحول العلم إلى وسيلة لمحاربة الإيمان بعد أن كان غاية نبيلة تسعى للاكتشاف.. يتحول أنصار ذلك المنهج إلى محاربين على منبر العلم ويصبح تحققهم الشخصي وإحساسهم بالتقدير الذاتي مرتبطًا بالانتصار على أهل الإيمان والغيبيات!

ويبدأ أهل الإيمان بغاية نبيلة هي تزكية وتطهير النفس ثم يتحول الأمر إلى صراع ضد أهل العلم والمادة ويصبح الانتصار الشخصي هو إثبات سقوط نظرية علمية أو أن تثبت إحدى النظريات ما جاء في الدين، يتحول الأمر إلى معركة شخصية يريد الجميع أن ينتصر فيها ليشعر بذاته، وتتحول غاية تزكية النفس وتطهيرها إلى معركة شخصية لإثبات المؤامرة الخفية على الدين!

وكلا الموقفين، موقف هؤلاء وهؤلاء يبعثان على الضحك والمرارة معًا!

ولو توازن هؤلاء وهؤلاء لانتظمت الحياة على الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها.. حيث لا إفراط ولا تفريط.

غير أن ما يحدث كله يبدو وكأنه نابع من إحساس عميق بالنقص وعدم التحقق عند كلا الطرفين، ذلك الإحساس هو ما

يدفع كلًّا منهما لمحاولة التحقق، والإنسان يتحقق بطريقتين، إما بأن يصنع مجدًا وإنجازًا وتقدمًا وهذا هو التحقق الفعلي، أو بأن يقلل من المحيطين به ويقزم الآخرين ويسعى لكسر المخالفين له فيشعر وكأنه أفضل ويتحقق تحقق زائف!

كانت الموسيقى التي تنبعث من هاتف ليلى توترني، قلت لها: ألا أجد عندك أغنية لعبد الحليم حافظ؟ وتركتها تبحث لعلها تنتصر على الذكاء الصناعي وتختار لنا شيئًا جميلًا..

***

لماذا علينا أن نحب أنفسنا؟ ونحب الآخرين؟

نعيش لحظات عجيبة جدًّا، كنا نعتقد أن ثمانينيات القرن الماضي هي عصر السرعة، بعدما تطورت برامج التلفزيون واشتهر اختراع الڤيديو ونوادي الڤيديو وأصبحت وسائل الترفيه متزايدة وكثر إنتاج شرائط الكاسيت وبدأ الإنسان في امتلاك حاسوب شخصي في المنزل، كان شكل الحياة يتغير وإيقاعها يتغير، ولم نكن نتخيل ما سنصل إليه في خلال أربعين عامًا فقط، نحن تجاوزنا عصر السرعة، ويمكن تسمية العصر الذي نعيشه مسميات عدة، لكني أفضل تسميته "عصر الوجبة" كنا في السابق نأكل حتى نشبع، ثم ظهرت فجأة في حياتنا ثقافة الوجبة، فأصبحنا نأكل حتى تنتهي الوجبة حتى لو شبعنا منذ نصف ساعة، يستمر الأكل رغم الشبع لكي ننهي الوجبة التي اشتريناها!

كنا في السابق نذهب للسوق ونشتري مكونات طعامنا ونأخذ وقتًا طويلًا في تحضيره في منازلنا، فنستمتع بعملية الطبخ وتُعبأ منازلنا بروائح التوابل والبهارات والطعام، ثم نأكل حتى نشبع وكانت بيوتنا تنوع الطعام بين الخضروات والأكل الصيامي ويكون نصيب العائلة من اللحوم يومين أو ثلاثة على الأكثر، ثم ظهرت ثقافة الأكل السريع وتوصيل الطعام للمنزل وطلبات الأكل وصار مفهوم الساندويتش يعتمد على اللحوم بشكل دائم، وفقدت بيوتنا رائحتها وفقد الوقت معناه وأصبح كل شيء سريعًا جدًّا وبلا طعم.. والطلب الزائد على اللحوم تحول إلى ثقافة، تحول إلى سلوك من الشراهة وثقافة

من الاستهلاك المحموم، وكلما زاد الطلب على اللحوم زاد الضغط على موارد كوكبنا المسكين المثقل بالتلوث والنقص الحاد في الموارد، كل ساندويتش برجر يكلف الأرض عددًا مهولًا من لترات المياه العذبة، لترات هائلة تحتاجها الأبقار للشرب ولزراعة الحشائش ولتصنيع الأعلاف ولتنظيف المزارع ثم لعمليات الذبح وتنظيف اللحوم وتصنيعها، وزراعة القمح وعجن الخبز وغسل الخس والخضروات وتصنيع الإضافات وتنظيف مطابخ محلات البرجر، كوكبنا الذي يعاني العطش ونقص موارد المياه، نضغط عليه يوميًّا مع كل ساندويتش جديد نطلبه ونحن لا نبالي!

ثم إن ثقافة الوجبة بدأت بالطعام وانتقلت لكل شيء، أصبحنا نريد أن نحب بطريقة الوجبة، لم يعد يكفي الود والعشرة الطيبة وحلاوة التلميحات البريئة، أصبح علينا أن نقدم حب كومبو(2)، وحب لارج وحب إكسترا صوص، ولم يعد يكفي أن تكون موظفًا أمينا ومتقنًا في عملك، ولكن أصبح عليك أن تكون موظف كومبو، موظف يعمل تحت ضغط لساعات إضافية، وربما يبيت في العمل ويتعدد المهام المطلوبة منه ومطلوب منه أن يتحدث الإنجليزية بطلاقة في بلد عربي يتعامل فيه مع عملاء عرب ويعمل مع زملاء يتحدثون العربية، ولكن هذه هي مواصفات وجبة العمل.

ثم إن طريقتنا في الحياة أصبحت تحت نظام زمن الوجبة، لو أردنا الخروج لتقضية وقت فأصبح علينا الالتزام بالطريقة التي يمليها علينا الثلوجرز(1) في الخروج، واختفت ثقافة التمشية

والتنزه في الحدائق وزيارة متحف أو مسرح..

ولو أردنا التسوق فعلينا أن نتسوق كما يفعل الإنفلونسرز(0)، ولو أردنا الزواج فعملًا بمقتضيات زمن الوجبة سيتحول احتفالنا بالزواج الذي هو أمر يخصنا إلى مناسبة عامة يشارك فيها المجتمع كله، وربما نتحول نحن أنفسنا إلى trend لأن زمن الوجبة فرض علينا طريقة في الفرح وطريقة في الحزن وطريقة في فعل كل شيء، والعجيب أن صفات ذلك العصر في غاية الغرابة؛ لأننا حتى لو أردنا الخصوصية فسنجد من يتلصص على خصوصيتنا ويصور لنا ڤيديو ونحن في مقهى أو في حفلة ثم ينشرها مع تعليق تنظيري عن حياتنا التي لم نطلب منه أن يدخلها!

في عصر الوجبة كل شيء ليس له علاقة بالشبع ولكن له علاقة بالنهم، بالشراهة، بالمقارنة بالآخرين، كل شيء يتحول من صورته الأساسية ووظيفته التي صُنع من أجلها إلى صورة استهلاكية بها الكثير من المفاخرة الكاذبة، وكأن الحياة العادية انتهت وأصبحنا في زمن الإكسترا صوصًا، حتى إن الطعم الأصلي للأشياء لم يعد معروفًا من كثرة الإضافات التي نستخدمها مع كل شيء.

وفي زمن بهذه المواصفات سوف يضيع الطعم الأصلي للأشياء، سوف نفتقد حقيقة الأشياء البسيطة وجمال بساطتها؛ لأننا صرنا نهتم بأن نصور الضحك أكثر من أن نضحك، وصرنا نهتم بالحديث عن من نحبهم وبالتقاط سيلفي معهم، أكثر من حقيقة مشاعرنا لهم وأكثر من بناء رصيد من الاحترام

والتقدير بيننا وبينهم.. لأن في عصر الوجبة صارت الإضافات والإكسترا والكومبو والچامبو والبطاطس والبيبسي أهم من الطعام نفسه، وأصبح الطعام كله يشبه بعضه لأن الإضافات واحدة، والأصل تائه أو مغشوش وسط كل تلك المظاهر.

لأننا صرنا نهتم بأن يرانا الآخرون سعداء معًا أكثر من حقيقة هل نحن سعداء معًا فعلًا أم لا! ولأننا أصبحنا نهتم بعدد المتابعين وعدد الإعجابات أكثر من اهتمامنا بجمال أن نترك أثرًا طيبًا ولو لشخص واحد فقط في الحياة.

لذلك من المهم في زمن الوجبة أن نعيد اكتشاف أنفسنا، لأن الواقع هو أننا في كل لحظة نتغير، ومع تسارع العصر الحالي صرنا نتغير أسرع مما قبل، وصار التغيير الذي يحدث لنا ثوريًّا في بعض الأحوال، بات من المهم أن نعيد اكتشاف النسخة الجديدة منا، ونحبها ونحافظ على أصالتها؛ لأن كل النسخ تتشابه بالإضافات، كل النساء تتشابه في الجمال والجاذبية باستخدام أدوات التجميل وفلاتر ومؤثرات السوشيال ميديا، حتى إنني بدأت أتخيل في المستقبل أن يذكر التاريخ زمن كان كل البنات فيه على إنستجرام عيونهم ملونة وخدودهم حمراء وبشرتهم تميل للاصفرار مع بعض النمش الخفيف أسفل عيونهم.. كل النساء قد تتشابه بمساحيق التجميل والمؤثرات لكن ليس كل النساء تتشابه في جمال شخصياتهن وأصالة أفعالهن.. وكل الرجال قد تتشابه في قوة بنيانهم وشياكتهم بالتمارين والبذات المشدودة، ولكن ليس كل الرجال يتشابهون في حسن أخلاقهم ورجاحة عقولهم.. كل ما حولنا

يمرق بسرعة، يمر بجوارنا أسرع من الريح المرسلة، ونحن لو لم ننتبه أن العالم يجري سنهلك لو توقفنا لأن العالم كله سيسبقنا، وسنهلك لو بدأنا في الجري ونحن لا نعرف الوجهة.

ربما لو اكتشفنا نسختنا الجديدة وأحببناها، وشعرنا بالامتنان للأشياء البسيطة الجميلة التي نعرفها ونمتلكها، ربما لو توقفنا عن الاستسلام لثقافة الوجبة المقدمة والتي يجب أن نلتهمها كلها، وقررنا أن نأكل فقط حتى نشبع وليس حتى تنتهي الوجبة، أن نحب فقط حتى نحترم أنفسنا في العلاقة وليس حتى فناء أنفسنا في العلاقة، أن نتعلق بالأشياء حتى ننتفع منها لا حتى نتفاخر بها، ربما حينها سنتخلص من التخمة ونشعر بالشبع الحقيقي للمرة الأولى.

لكل منا محطته

لكل منا محطته، يدور الزمن وتأتي لحظة النزول.. في السابق كان رجل الكهف يجلس أمام كهفه ينتظر مصيره ويبحث عن الطعام، يصطاد حينًا ويزرع حينًا آخر ثم يعود إلى الكهف ينظر نحو السماء ويتساءل عن سبل النجاة.. كانت النجاة الأولى في الكهف نفسه، أن يحمي نفسه ومن معه في الكهف من وحوش الصحراء والغابات ومن لهيب الشمس الحارق ورياح الشتاء القاسية وزخات الأمطار المغرقة.. ولما تطور الحال وتغير المآل واتسعت المدن وشُقت الطرقات، كانت نجاة بعض الناس في الهجرة، الهجرة بعيدًا عن الطاعون والأوبئة والهجرة من الظلم والتيه، والهجرة إلى الرزق وطلب العلوم والتجارة واستكشاف الحياة.. ويبدو أن سنة الله في الحياة أن تتطور الحياة ما شاءت ويظل الكهف والهجرة هما سبيلين للنجاة في كل شيء..

الكهف في صورته القديمة كان كهفًا في الجبل، والكهف في هذا الزمان قد يكون بيتًا يُؤويك أو صديقًا مخلصًا أو حبيبًا وفيًّا أو ابنًا بارًّا وأبًا حنونًا.. وأغلب كهوف الإنسان تكون داخله، كهف الإنسان قلبه، يدور الزمان ويتطور العالم ويخرج الإنسان القديم من حياة الكهف إلى حياة المدن الذكية والسفر إلى الفضاء، ويظل كهف الإنسان داخله ملاذه ومأمنه، وكلما كان كهفه الداخلي مرتبًا ونظيفًا ومتسعًا له ولمن معه، كان الإنسان أكثر قدرة على مواجهة التغييرات والرياح العاتية القادمة من الخارج..

أما الهجرة فهي السبيل الآخر عندما يضيق الكهف الداخلي فتكون هجرة ما يؤذينا وهجرة ما يضرنا والهجرة إلى ما ينفعنا، يسافر الإنسان في رحلة لاكتشاف نفسه واكتشاف من معه، ومع كل هجرة جديدة، هجرة شيء والهجرة إلى شيء، هجرة فكرة والهجرة إلى فكرة جديدة ينشأ كهف جديد أوسع وصالح لإعادة الترتيب من الداخل، كهف جديد مع كل هجرة جديدة.. كهف داخلي صالح لبداية جديدة، صالح لتعميره بالجمال والونس.

كان القطار قد وصل إلى المحطة، أردت أن أودع ليلى وأحتضنها كابنتي التي غابت عني، وكادت عيناني تغلبني بالدموع، قلت لها لا أحب أن أقول وداعًا لأني أشعر أن قلوب الطيبين متصلة ونفوسهم تلتقي، ولكن أقول لك ربما يومًا ما نلتقي.. نظرت لي وقالت هل ستذهب وحدك؟ وهل لنا حيلة، نأتي هذه الدنيا وحدنا، يظن الناس أننا نأتي ومعنا الأهل والأحباب، هذا هو ظاهر الأمر، لكن واقع الأمر أننا نأتي وحدنا، نغترب في تلك الحياة، كل منا يغترب في داخله، ونحاول أن نقاوم الغربة بالوصل والعمل والحب والنجاح والطموح.. لو نظرنا في الداخل في أعماقنا لوجدنا أن كل ما نحاول فعله هو دفع الغربة عنا لا أكثر، ثم عندما يمضي العمر نغترب مرة أخرى ونذهب وحدنا، هل يختار أحد طريقته في الرحيل؟ أو رفقاء الرحيل؟ لم يحدث ذلك يموت الإنسان وحده كما جاء وحده.. الواقع أننا نعيش في وحدة، وفي المنتصف نحاول دفع تلك الوحدة قليلًا حتى لا نستوحش ونيأس.

قلت لها: ليس اختياري أن أذهب وحدي، إنما هو قدرنا كلنا، نعيش معًا ونذهب وحدنا.

خرجت من عربة القطار.. كانت السماء غائمة، ويبدو أن المطر سيحدث في أي لحظة.. غابت ليلى عن نظري، ولمحت روبي من بعيد تسير وتنظر للخلف كل بضع خطوات، تنظر نحوي ثم تكمل سيرها.. في خارج المحطة كان ميدان متسع يطل من الجانب على حديقة صغيرة.. رأيت دكة خشبية بجوار شجرة كبيرة.. وكنت أعاني من ألم الركبة وتيبس المفاصل.. اتكأت على حقيبتي وذهبت نحو تلك الدكة.. كان يفصلني عن محطة القطار بضع خطوات.. وعندما جلست وحيدًا وأوراق الشجر يتطاير من حولي، والهواء البارد يلفح وجهي، أحسست كأني غصن شجرة مقطوع في مهب الريح. نفس الإحساس الذي بدأ بعد رحيل أبي وأمي.. عندما يرحل الآباء تشعر أن جذور شجرتك قد اقتلعت من الأرض وأنك تحولت إلى غصن مقطوع بلا جذر، ورقة شجر متطايرة في الهواء.. تشعر بأن كل ما يربطك بهذه الحياة قد انتهى، يمضي الوقت وتظل مقطوعًا ومتطايرًا ولا يكون أمامك إلا أن تتحول أنت إلى جذر جديد يتمسك بالأرض ليُنبت غصونًا وأوراقًا جديدة.

وأنا في شرودي أحسست بيد توضع على كتفي، نظرت بجانبي فإذا هي الست رباب، وأدهشني جرأتها، ثم رأيت ليلى تقترب من بعيد.. قلت لها: هل أنت بخير؟ أتريدين شيئًا.. كانت ليلى قد جاءت.. قالت رباب: نريد أن نذهب للمنزل ثم خلعت نظارتها.

كانت كل ذكرياتي وأيامي ترتحل في عينيها.. في هذه المرة بدأت أتذكر، ولم تمهلني لأفكر، قالت رباب: في كل مرة تنسى دواء الزهايمر لفترة طويلة ثم تنسانا بعدها.

انتبهت للحظة ثم فطنت لما تقول، وبدأت الذاكرة تعمل ثم بدأت أتذكر كل شيء، ثم وضعت يدها في زراعي وقالت لليلي هيا نذهب للمنزل قبل أن تمطر وقبل أن ينسانا أبوكِ مرة أخرى ويتخيل أننا أشباح زوجته وابنته.

وضعت ليلى يديها في ذراعي الآخر وبدأنا نمشي.. كنت أتذكر كل شيء، ابنتي ليلى التي أضاء الكون عندما جاءت للحياة وحبيبتي رباب، حبيبتي روبي التي أحتفظ في عينيها بكل ذكرياتي وأيامي وأحتفظ في قلبها بكل أحلامي..

مشينا وأنا أحتضن ذراعيهما، وسألت ليلى هل وجدتِ أغنية لعبد الحليم، قالت نعم وانطلق صوت عبد الحليم يشدو "أهواك وأتمنى لو أنساك وأنسى روحي وياك" وكنا نغنيها معًا.. نغنيها بعد أن كنت هيّأت نفسي أن أستمع وحدي لأغنية hurt لچوني كاش.. كنت هيّأت نفسي أن أسمعها وأبكي.. لكني الآن أغني "أهواك" مع حبيبتي..

كنا نمشي وأحسست أن ركبتيَّ تؤلماني، ولمحت الطفل البدين يعبر الطريق مع أمه فخفت قليلًا منه، غير أنه ابتسم لي وهو يأكل چيلاتي بكل وجهه، أحسست أنه ربما يكون طيبًا وأحمق ولا مانع من التبسم له.. وأشار لي بيده فأشرت له وابتسمت من قلبي.

هكذا هي الإسكندرية، كل ما فيها جميل..

انتهت أغنية "أهواك" ثم اختار الذكاء الصناعي في التطبيق على هاتف ليلى أغنية أخرى بدأت فورًا..

كانت أغنية "شايف البحر" لفيروز، وبدأت الفتاتان في دندنة الأغنية مع فيروز، وكانت كل كلماتها معبرة..

نطرتك أنا.

ندهتك أنا.

رسمتك على المشاوير.

دندنت معهم.

وكنت أشعر أني لست وحدي.

للمرة الأولى.

***

الهوامش

(42) ليس المقصود هنا تبرير فكرة الصراع على المرأة ولا فكرة الافتراس والصيد، ولكن المقصود هو شرح كيف بدأت تلك الأفكار.

(41)ربما يمكننا مناقشة باقي الغرائز في كتاب آخر يركز على النفس البشرية.

(40) أحد أنواع التبغ المستخدمة في الغليون.

(39)الدالاي لاما هو لقب عند البوذيين يلقب به من وصل من اللامات إلي درجة كبيرة من الاستنارة والحكمة، واللاما تعني السيد الحكيم، أما دالاي فتعني المحيط بالحكمة أو صاحب الحكمة، وعند البوذيين كل فترة طويلة يظهر دالاي لاما يجدد لهم فكرهم ويكشف لهم مساحات جديدة من التأمل ويطلقون عليه في ذلك الوقت بوذا الحي.

(38) قبل الولادة يكون لدى جميع الأطفال ثقب أو فتحة بين الأذينين الأيمن والأيسر للقلب بشكل طبيعي، ويُعرف هذا الثقب باسم الحفرة البيضاوية.

ويقفل ثقب القلب قبل الولادة عند معظم الأطفال، ولكن في بعض الحالات لن يقفل الثقب إلا بعد أسبوع أو حتى عدة أشهر من بعد ولادة الطفل، إلا أنه قد لا يغلق جدار الحاجز من تلقاء نفسه أحيانًا وهذا ما يسمى الثقبة البيضوية الواضحة

(37)(قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ) [العَنكَبُوت: 20

(36)سيتحول مفهوم القيمة فيما بعد لمفهوم الثمن.

(35) يمكن للقارئ البحث في هذا الموضوع، إن المرحلة التي تغير فيها الدولار وأصبح بديلًا عن الذهب غيرت شكل الاقتصاد على كوكب الأرض بل

وغيرت مفهوم القوة والسيطرة، والنظام العالمي.

(34) ما حدث في هيروشيما وناجازاكي في اليابان، بعد تنفيذ أول عملية نووية، وضع العالم كله في حرج من إعادة استخدام تلك القوة التدميرية البشعة، وتحولت إلى أداة تخويف وردع؛ لأن أي استخدام جديد لها قد ينهي الحياة على الكوكب بصورتها المعروفة حاليًا.

(33) جهاز أمني ومخابراتي روسي، يوجد محاضرات مشهورة ورائجة جدًّا لمحاضرين كانوا ضباط سابقين في هذا الجهاز، وهي منتشرة عبر الإنترنت، جرب البحث عن "كيف تدمر شعب بدون حرب" أو "فن الحرب".

(32) نوع من الحروب التي تعتمد على تزييف الوعي، وخلق مصطلحات تصبح متداولة بين الشباب والناس وفي الإعلام حتى يتم زرع صورة ذهنية أو فكرة في عقلية الوعي الجمعي.

(31) ديانة هندية قديمة، قائمة على تعدد الآلهة، وبها بعض الممارسات الوثنية، ولها فلسفات خاصة عن تناسخ الأرواح وتقمصها، حيث يعتقد أهلها أن جزاء الأعمال في الدنيا يحل في حياة أخرى، وبعد الموت وانتهاء دورة حياة الجسد وفنائه، تبدأ الروح في دورة جديدة من الحياة في جسد جديد، وقد أطلقوا على حالة الجزاء على العمل "الكارما"، حيث تحاسب روحك حسب أعمالك وتحل في حياة أخرى في صورة جميلة لو كانت أعمالك صالحة وفي صورة قبيحة لو كانت أعمالك السابقة سيئة.

(30) ديانة قديمة تمردت على الهندوسية وجاءت بتعالم جديدة على يد بودا المستنير، وبدأت كحركة رهبنة وزهد، ثم انتشرت في منطقة نيبال والتبت، وهي تظل في إطار الفلسفة الروحانية أكثر من فكرة الدين، حيث تعتمد على فكرة تحرر الروح من دورة تناسخ الأرواح وترتاح إذا تخلص الإنسان من ماديته وشهواته وزهد فيما يحتاجه الجسد، وتسمى تلك المرحلة "النيرڤانا" وهي حالة الانعتاق التام للروح من دورة التقمص وتناسخ الأرواح وأن تحل في حياة جديدة.

(29) سورة العنكبوت ٢٠.

(28) سورة البقرة ٣٠.

(27) سورة الأنعام ٥٠.

(26) سورة الروم ٨.

(25) يمكن للقارئ البحث في مفهوم مشكلة الشر والإرادة الحرة، فهي أحد أهم المداخل الفلسفية في مفهوم الإيمان.

(24)سورة الرحمن ٧.

(23)سورة العلق ١.

(22) عبادات لا تؤمن بإله خالق للكون، وتعتمد على عبادة قوى الطبيعة في بعض الأحيان مثل الشمس والرياح والأرض، وقد طوروا مفاهيم خاصة بها منها وحدة الوجود ووحدة الخلود، وهي مفاهيم تمثل لهم أن الإنسان والكون وخالق الكون هم شيء واحد في صور متعددة، ومن العبادات الوثنية عبادة الأصنام والأحجار والتماثيل الخشبية والحيوانات أو ما يمثلها.

(21) القبائل التي سكنت شمال أوربا ووسطها وهاجروا من عدة أماكن ومدن في شمال أوربا وإسكندنافيا ووسط أوربا حتى سكنوا بمحاذاة الإمبراطورية الرومانية، وقد كانوا قبائل همجية بربرية لا تعرف الحضارة ولا القيم، وانقسموا لعدة عرقيات وكل عرق منهم سيشكل جزءًا من أوربا الحديثة فيما بعد، مثل فرنسا وإسبانيا وإنجلترا.

(20) تعددت وجهات النظر التاريخية في ذلك الموضوع، ويظل محل بحث ودراسة.

(19) سبق أن هُزمت اليونان فكريًّا أمام غزو الفرس، ثم هُزمت روما فكريًّا

أمام فلاسفة اليونان المتأثرين بالشرق، واضطرت لاعتناق ديانة شرقية وهي المسيحية لتعزز موقفها وتحظى بشعبية، وكانت المرة الثالثة هي هزيمة أوربا فكريًّا بعد فشل الحملة الصليبية على الشرق.

(18) عند الحديث عن الكنيسة وممارستها في أوربا فيقصد بها الكنيسة الغربية.

(17) العلم تعارض مع المنطق هنا استنادًا على نظرية غير مجربة في المختبر رغم رفض العلماء سابقًا لكل ما هو غير مجرب واعتبار كل حقيقة غير مجربة ليست حقيقة وإنما احتمال وأن الحقائق هي فقط الحقائق العلمية المجربة.

(16) تلك الحيرة كلها نشأت من منظور العلم، لأن العلم لا يعترف بالغيبيات، والعلم يقيد نفسه بعدة قيود.. أما من منظور المؤمنين فإنه لا وجود لتلك الحيرة العلمية؛ لأن كل الأمور يمكن تفسيرها بصورة أخرى تتماشى مع منطق الإيمان بالغيب.

(15) تلك هي رؤية المؤلف والنموذج المذكور الذي صور النفس بقوة الاتصال والروح بقوة الحياة والجسد المادي والوعي والذي يمثل نظام التشغيل والادراك والسلوك هو نموذج ابتكره المؤلف لتوضيح الصورة وهو نتاج تحليل مطول، غير أنه يظل رؤية خاصة بالمؤلف لم تسبق الإشارة إلى رؤية ونموذج مشابه من قبل، وهي تظل وجهة نظر.

(14) سورة الزمر ٤٢.

(13) اجتهد المؤلف في دراسة تفاسير عدة للآية وقد قدم رؤيه شخصية من واقع فهمه للنص القرآني وهي رؤية تتسق مع التفاسير القرآنية ولا تبتعد عنها أو تخالفها، غير أنها رؤية المؤلف الخاصة وبها الكثير من الاجتهاد الشخصي.

(12) سورة الزمر ٤٢.

(11) يمكن للقارئ البحث عن مكعب لوڤهايم لشرح كيمياء المشاعر، والبحث في نظرية كيمياء المشاعر.

(10) سورة الكهف ٦٧- ٦٨.

(9) تسرد القصة حكاية أصحاب سفينة ركبها موسى والخضر فخرقها الخضر، ولما استغرب موسى لم يكشف له الخضر السر، حتى تبينت الحقيقة بعد ذلك، أن في تلك البلد هناك ملك ظالم يأخذ كل سفن الناس قهرًا، فلما وجد خرقًا وعيبًا في السفينة تركها لأصحابها، فأصلحوها وعملوا عليها.

(8) تسرد القصة مرور موسى والخضر على غلام صغير فقتله الخضر، فلما أنكر موسى ما فعله الخضر وغضب من ذلك الفعل، كشف له الخضر مستقبل الطفل بأنه كان سيتحول لطاغية يرهق أبويه ويظلمهما، وأن الله سيبدل الأبوين طفلًا خيرًا منه.

(7) تسرد القصة مرور موسى والخضر على أهل قرية جشعة وبخيلة فيذهب الخضر ويبني جدارًا على أحد البيوت دون أجر، وعندما ينكر موسى ذلك الفعل على الخضر، لأن أهل القرية جشعين وبخلاء، يكشف له الخضر حقيقة أن هذا الجدار يحمي خلفه كنزًا تركه رجل صالح لولديه قبل أن يموت، وهو يريد حفظ الكنز لهما حتى يكبرا خوفًا من جشع أهل القرية.

(6) داء الزهايمر هو اضطراب عصبي متفاقم يسبب أعراضًا كثيرة منها فقدان الذاكرة القريبة واضطراب التفكير والخرف، وفي الأغلب يصيب المتقدمين في السن.

(5) بالإنجليزية artificial intelligence وهو نظام برمجي ذكي يطور من معارفه عن طريق تتبع البيانات والمعلومات.

(4) حادثة معروفة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وفيها انتقل الرسول من مكة إلى القدس ثم إلى السماوات عن طريق كائن يطلق عليه البراق، وهي قصة أصيلة في الدين الإسلامي وجاء ذكرها في القرآن والسنة، وتشبه

المعجزات التي حدثت لكل الأنبياء.

(3) وجب التنويه أن الأفراد والمجتمعات الشرقية التي انتبهت لتلك الأزمة وبدأت في الأخذ بأسباب العلم والتطور صنعت نجاحات كبيرة في زمن قياسي.

(2) الكومبو والميجا والصاروخ وغيرها هي مصطلحات ظهرت مع ثقافة الأكل السريع ومحلات الساندويتشات وهي مصطلحات تعني أحجامًا أكبر من الساندويتشات مع الكثير من الإضافات التي تسبب تخمة.. وكذلك مصطلحات مثل إكسترا صوص والتي تعني المزيد من الإضافات.

(1) بالإنجليزية Vloger مقدمي المحتوى المرئي عبر الإنترنت والذين يصورون تفاصيل أيامهم وحياتهم.

(0) بالإنجليزية influencer مشاهير شبكات التواصل الاجتماعي والمؤثرون.

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمَ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

تأكد من أنك تقرأ هذه الرواية من قناة ضــاد الرسمية على تطبيق تيليجرام:

تمَ تجهيز هذا الكتاب الإلكتروني
بـواسـطـة:

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

مَوعِدٌ مَعَ فَيلسُوف

في القطار، نقابل أناسًا عاديين طوال الوقت. لكن ماذا لو قابلت فيلسوفًا يجلس في المقعد المجاور لك؟

في هذا الكتاب تقابل فتاة في العشرينات فيلسوفًا صدفة في قطار، وتسأله عما يدور في عقلها من تساؤلات محيرة.

ستسأله عن الأسئلة الكونية الحائرة التي تعصف بأفكارها كل ليلة بعد الثانية عشرة ليلًا.. ستسأله عن الحب وعن الخوف، عن القلق والتفكير المفرط، وسيحكي لها عن رجل الكهف الأول، وكيف بدأ الخلق؟ ولماذا نقاتل في الأحلام من سبقونا إلى الموت؟ وكيف يفكر الرجال وبماذا تشعر النساء؟ ما هي حقيقة النفس؟ وما هو الفرق بين النفس والروح والوعي؟ وما هو سر الصراع بين أنصار العقل وأنصار الروح؟ ولماذا تنشأ الحروب؟ ولماذا تعاني من آلام الفقد والحزن؟

هذا الكتاب هو رحلة من خواطر وتأملات تدور في عقل فيلسوف يبحث عن المعنى في زمن الحيرة والتخبط، فإذا احترت في علامات الطريق فربما تجد هنا ملامح للوصول، فلتبحث معنا.

COVER DESIGNED BY AHMED FARAG

أحمد مهنى

كاتب مصري من مواليد القاهرة، حصل على ماجيستير إدارة الأعمال الدولية، عمل لسنوات في مجال الإنتاج الفني، شارك في تأسيس ورئاسة تحرير سلسلة إصدارات "مدونات مصرية للجيب" عام 2008 وهي أول سلسلة عربية تنشر أعمال المدونين، كما شارك في تأسيس دار دوّن للنشر والتوزيع، صدر له عدة كتب منها "اغتراب" مجموعة قصصية عام 2009، رواية "سوف أحكي عنكِ" عام 2015 والتي تحولت إلى عمل مسرحي وحظت بشهرة واسعة، كتاب "مذكرات الثانية عشرة ليلاً" عام 2019، ورواية "ساعتين وداع" عام 2020.

9 789778 063684 >

دوّن للنشر والتوزيع

ضائع
t.me/twinkling4